إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

توطيدُ الأسلمَة في أوساطٍ مُعلمَنة

أو

نحو فقه سديد لمعالجة واقعنا المعاصر

دراسة تحليلية لسبل الإصلاح والدعوة ومعالجة واقعنا المعاصر بمنهجية معاصرة في دول إسلامية وأجنبية ارتفعت فيها معدلات العلمنة بشكل بارز دائب التطور ودائم التقنين

محمد الزجراجي بريش

مهندس رئيس في الهندسة المدنية
خبير في الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية
خبير في تدبير الشأن الثقافي وتربية القيم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا،

من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا.

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم. ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما.

أما بعد:

فهذه الدراسة المقتضبة هي عبارة عن تأملات استخلصتها من سنوات قضيتها كخبير استراتيجي ومدير ثقافي بالغرب وفي قلب عاصمة الاتحاد الأوروبي من جهة، ومما عشته دفاعا وتدافعا في بلدي وفي مجتمعات إسلامية لمست فيها تصاعد معدلات العلمنة وضمور الدعوة وخمول النشاط العلمي الإسلامي الممنهج من جهة أخرى.

ونشر الجانب الأهم منها في حلقات بمجلة **"دعوة الحق"** العريقة التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية منذ ذو الحجة ١٣٧٦ / يوليو ١٩٥٧ أيام كنت المدير العام بمؤسستها في ستة أعداد، بدءا من العدد ٣٤٣ محرم ١٤٢٠ / مايو ١٩٩٩، إلى العدد ٣٤٩ شوال – ذو القعدة ١٤٢٠ / يناير – فبراير ٢٠٠٠، حاولت أن أحيي بها نفس المجلة الأصيل الذي كان زمن سنواتها الأولى المتميزة، مع الفارق طبعا بيني وبين أولئك العلماء الكتاب، الأجلاء المرموقين، لغة وتحليلا وعمقا.

وبقيت بعض الفصول من الدراسة لم تنشر ولم تحرر تحريرها النهائي لمغادرتي رئاسة المجلة من جهة، وانشغالي بدراسات استراتيجية لصالح مؤسسات دولية من جهة أخرى، إلى جنب انغماس في مهام علمية وإدارية خارج البلد، أسأل الله العلي القدير أن يساعد على إنهاء تحريرها ونشرها، وهي تتناول جوانب مفصلة في منهج المعالجة لواقع الأمة وفق مشاهد مشروطة ومرجوة للإصلاح، لتكثير سواد الصالح وتوسيع دائرة الصلاح، في واقعنا الفسيح المتخن بالجراح.

والله عز وجلا المستعان، وعليه سبحانه التكلان.

الشارقة، عاشوراء ١٤٣٢ / ١٦ ديسمبر ٢٠١٠

محمد الرجراجي بن العربي بريـــش

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

توطيدُ الأسلمة
في أوساطٍ مُعلمَنة

المدخـــل

نحو تجديد للذات
ووعي بالمحيط

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بحوث ودراسات

توطيد الأسلمة في أوساط معلمنة

نحو تجديد للذات ووعي بالمحيط في أوساط جاليتنا المسلمة

للأستاذ محمد بريش
مدير مجلة دعوة الحق
مهندس خبير في الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾. (1)

نظرنا في هذه المعالجة يطوي مراحل التاريخ ليستخلص العبر، ونظرتنا تشمل واقع الأمة الفسيح لنتبين الضرر. فلقد كان الأثر السلبي لأزمة الفكر المستفحلة في ميادين التأمل والتدبر والتقييم والاستشراف منذ عصور «**ما بعد الاجتهاد الشامل**»(2) على عمليات المواكبة لسير حركة التطور الاجتماعي والعمراني والمعرفي داخل صفوف المجتمعات الإسلامية قويا إلى حد تعطيل جوانب هامة من دواليب الأمة، ووضع العقبات أمامها، وتمكين المتربصين الدوائر بها من تحقيق بعض الضربات المكبلة لجريان عجلاتها، حتى أضحى الخلل داء ملازما لها، ووصفا لصيقا بها، بشكل أدى بانتقال تلك الحركة تدريجيا من السرعة الدائبة إلى التعثر، ثم التعطيل شبه التام.

إصابتان أصابتا الأمة
أولاهما في النظر وثانيتهما في العمل

وبخصوص **مجالات الفكر والثقافة والعلم**، فقد تجلى كل من التعثر والتعطيل داخل ساحة واقعنا الفكري والثقافي والعلمي في جانبين أساسيين :

أولا – الجانب النظري : والذي بدأ التصدع يسري لصرحه بانتظام منذ القرن الخامس الهجري، وعلى وثيرة أسرع بدءا من أواخر القرن السابع، وإن كان بالإمكان أن نؤرخ لمثل هذا الأفول المنتظم قبل ذلك التاريخ إذا غضضنا الطرف عن الاستثناءات الظرفية المحصورة زمانا ومكانا. فبعد القرن الخامس، دخلت الأمة من حيث الإنتاج العلمي والفكري والثقافي في الاختصارات والشروح لما ابتكر من العلوم والفنون في الأزمنة السابقة، حيث شهد معظم ذلك الإنتاج

1) سورة الفرقان، الآية : 62.

2) ننطلق من فرضية لها ما يؤيدها من دلائل، مضمونها أن الاجتهاد لم ينقطع في الأمة قط، ولم يسد أبدا بابه. أما تفسيرها للخمول الحاصل في هذا الجانب فقوامه أن حركة الاجتهاد كجزء دافع لجهود التنظير الفقهي والتجديد العلمي والعملي شهدت نوعاً من الضعف المتزايد بدءا من القرون الأولى التي تلت عهود الخلافة الراشدة، وبلوغ شوكة الأمة الإبلاغية والرسالية والحضارية أعماقها الاستراتيجية القصوى التي أتيحت لها – وإن كانت طاقاتها تسمح يومئذ بالمزيد – بحيث انتقلت تلك الحركة بشكل متزايد في التضاؤل من سرعة السير الحثيث، إلى سرعة الخطى البطيئة، ثم شبه الركون الواضح، على مراحل ثلاث :

● **مرحلة عهود الاجتهاد الشمولي** التي كانت تشارك فيها معظم فاعليات الأمة في شتى القطاعات الحياتية والميادين الاجتماعية، بحيث إذا ما نظر إلى سريان فعل اجتهادها تنظيراً وتطبيقاً في الساحة العلمية والتشريعية والفقهية، ولوحظ جريان دمه في شرايين النسيج الاجتماعي والثقافي والمؤسساتي للأمة، اتضحت بجلاء شموليته، وأدركت بوضوح قوة وسعة نفوذه. ==

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ركوداً في وتيرة توالي دفعات الابتكار الحية مع نهايات **عصر التدوين**.

وكادت تتعطل الخطى - لولا بعض الفلتات الجريئة - بدءا من أواخر القرن السابع، وأضحت الأمة بفعل تعاظم الخلل وتفاقم الورم على موعد لم تعهده من الانحطاط، حيث كادت في جوانبها النظرية تكتفي بالتقليد وترديد مختارات من إبداعات السلف، حاصرة جهود ابتكار رجالاتها في صياغة المتون، وقاصرة طاقات علمائها ومفكريها على اختصار المدون. فلم تعد آلياتها التنظيرية في معظمها تفرز إبداعا، أو تولد ابتكارا، أو تقدم جديدا. فالتقليد بمختلف أنواعه : من التقليد السلبي، إلى التقليد الدافع لإلغاء العقل، إلى غيره من أنواع التقليد الفظيعة، جعل الجانب النظري لدى الأمة مهتز الأركان، متصدع البنيان، مشلول الحركة، ضعيف القوة والاستجابة لاستيعاب وإدراك ما يلزم لمعالجة المستجدات والنوازل اليومية في الميادين الاجتماعية والسياسية والتشريعية والعلمية والثقافية والتربوية والاقتصادية، وحائل دون الإقدام والاقتحام الضروريين لتخطي الحواجز، والتغلب على مختلف العقبات، وذلك في كافة تلك الميادين وما يرتبط بها من مجالات.

لم يكن للأمة منذئذ من حظ في البقاء واستمرار الحياة وتجنب الانهيار التام والشامل لولا جهد زمرة من الفاعلين بوركت خطواتهم، وضعف في العالم المحيط الذي لم يكن يومها على درجة من الوعي والتطور تمكنه من هجمة شرسة ماسخة على صعيد العلم والثقافة والفكر مثلما أتيحت له في أزمنة تالية.

ثانيا - الجانب العملي التطبيقي : ونعني به أساسا الجانب الشامل للقطاعات المؤسساتية الحية، مثل دور صياغة وصناعة الفكر، ومراكز توليد الآراء، ومؤسسات تقديم الرأي والمشورة على الصعيد الحكومي والشعبي، ومجامع استنباط الأحكام واستصدار الفتوى والبت في النوازل، وما يرتبط بتلك القطاعات من فروع وجهات، وما يتفاعل فيها ويبتكر داخلها - وما يتأثر بفعلها ونشاطها - من الرؤى والمناهج والنظريات.

معظم هذا الجانب الفعلي العملي من الساحة الفكرية أضحى معطلا أو مغيب الفعل حين سرى الخلل إلى **أبعاد النظر** في عقل الأمة. دبت إليه الأدواء من كل حدب وصوب فلحق جانب هام من كيانه الهلاك. بدأت معالمه الفاعلة تنكمش وتخمد حركتها على مراحل فسيحة من الزمن، فانطمست أنواره تحت كثافة دخان العوامل السلبية القاتلة، مثل استبداد الرأي المعطل، وشيوع التقليد المكبل.

فكان أن انسحبت من دائرة الفعل وصناعة التاريخ - بقوة صدمات الخلل وضربات التعطيل - تلك الصروح الضخمة التي كانت إبان العهود الزاهرة للأمة سوقا نشطة لمبتكرات الجانب النظري، ومختبرات لتمييز غثها من سمينها، وإشباعها نقدا لتمحيصها، ثم تمكين الثابت منها من الاختراق العمودي والأفقي على السواء لمراكز الابتكار الفقهية والفكرية ونوادي الإبداع الأدبية والحضارية، وتأهيله لاحتلال المراتب المركزية في المؤسسات التربوية، لتحل محلها دكتاتورية رأي القائد، وسطوة الفكر السائد، والاكتفاء بصب الجهود والطاقات في التدليل نهشا في نتاج السلف على حجية الرأي المستبد، وصلاحية الفكر المستتب.

=== ● **مرحلة الاجتهاد الجزئي**، وهو اجتهاد شمولي نوعا ما في قطاع أو قطاعات محدودة، لكن منسلخ في شموليته أو يكاد عن القرار السياسي، متقوقع داخل الميدان الفقهي ومحيطه الاجتماعي، فاقد تدريجيا شروط الاستجابة العضوية والحركية للمواكبة الحضارية لمتطلبات العصر.

● **مرحلة الاجتهاد الفردي**، حيث لم يعد يقوم بواجب الاجتهاد إلا أفراد قلائل في عهود الانهيار والانحطاط الحضاري، علمًا أن الاجتهاد في مختلف المراحل الثلاث كان في أغلبه فردياً، إلا أنه هنا انتفت عنه الشمولية، بل لم تعد تنحصر شموليته كما في مرحلة الاجتهاد الجزئي على قطاع أو قطاعات محدودة ومعزولة عن الفعل السياسي من قطاعات الحياة الاجتماعية والتشريعية، وإنما زاد ضعف حركته بأن قل رجاله والمتعاطون له المستوفون شروطه، فلم يعد يغامر بالجرأة على ممارسته إلا العدد القليل من المؤهلين.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ونحن إذ نقول هذا نعلم أن الأمة لم تخل في عصر من العصور من رجال ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله، لكن من الوجهة الاستراتيجية، وبمنظور الأمة لا بمنظور الفرد، يبدو لنا المجتمع الإسلامي في تطور مجالاته السياسية ورقعته الجغرافية ونسيجه الاجتماعي قد غاب عنه الوعي تدريجيا – مع تآكل الذاكرة الجماعية وإبعاد العلماء عن دواليب المسؤولية – بالخيرية المنصوص عليها في الآية : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ (آل عمران : 110)، ولم يدرك معنى العلوية المشار إليها في الآية : ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾ (آل عمران : 140).

فحين توقف العمق الاستراتيجي الإفريقي للأمة الإسلامية، وأوقف العمق الأوروبي، وأبطلت حركة العمق الأسيوي، ثم غابت الأمة تاريخيا عن الأمريكتين فدب لهما قوم أهلكوا الحرث والنسل، تخلت الأمة حينذاك عن صياغة وحراسة النظام الدولي، ولم تحسن شروط جلب جاذبية تداول الأيام جهتها، فأضحت مقودة لا قائدة، على ما فيها من أفراد نزهاء وعلماء أجلاء، ومن هذا المنطلق تفهم إشارتنا في ديباجة كتابنا هذا لطي مراحل التاريخ مع تبين الضرر، ومنه تدرك تحاليلنا التي سنوردها تباعا في هذا البحث.

فلم تعدم الأمة على مر العصور خيرة من العلماء وثلة من الفقهاء يبتون في نوازلها، ويشحدون هممها، وينشرون الدين في صفوفها، يعلمون الذكر الحكيم، ويحفظون سنة النبي الأمين، وقادة وزعماء يدافعون عن حدودها ويحفظون كيانها، ولكن دواليب الحركة في الأمة انعكست فأضحى للقائد مهما كان بسيطا قرار نافذ، وللعالم مهما علت مكانته رأي غير ملزم، ولعون السلطة وصاحب المال ورجل الأعمال تأثير يفوق تأثير الراسخ في العلم، وأولوية تربو على مرجعية حكماء الاستنباط. فأهمل بذلك النابغة، ولم يلتفت لتشجيع المبتكر في الصنعة، ولم يستثمر في تكثير سواد أولي النهى، وذلك عين الانهيار وأس التخلف.

ونحن نرى أن استعادة الأمة لحركتها ونشاطها، واسترجاعها للوعي بذاتها ورسالتها، وإحاطتها بمسؤوليتها ومضمون عقيدتها، وإدراكها لما هو منتظر منها داخل ما تعيش فيه وما يحيط بها، يحتاج إلى استعادتها لقوة العطاء في جانب النظر، وذلك باسترجاع الذاكرة وآلاتها وأدواتها المعرفية قصد معاودة التنظير في ميادين شتى، وإنزال المبتكر فيها بفعل ذلك التنظير لسد حاجيات الجانب العملي حيث مجال تحقيق عملية الشهود الحضاري، وساحة إنجاز عمليات أداء الرسالة من خلال أبعادها الفكرية والعلمية والثقافية والدعوية.

وإنزال المبتكر لسد الحاجيات الجديدة يعني الإسراع باسترجاع ذلك الجانب العملي الفعلي من العملية الفكرية. فنحن أحوج ما نكون بعد التنظير وموازاة له إلى تسويق الفكر المبتكر عبر قنوات حيوية وعضوية، تجري في الحياة الاجتماعية مجرى الدم، تضخ الدم النقي الزكي في شرايين الآليات الابتكارية والنظم المعرفية والأدوات العلمية التي بها تصهر الألباب وتصاغ النهى. تجري مجراها وتفعل فعلها في مؤسسة المسجد، ومؤسسة الإرشاد الديني، ومؤسسة الفتوى والبت في النوازل، ومؤسسة المدرسة، ومؤسسة الجامعة، ومؤسسات التكافل الاجتماعي، ومؤسسات التعبير الثقافي، ومؤسسات البحث العلمي الفلسفي والديني، وغيرها من المؤسسات الحية التي يلزم أن تسير سيرها الطبيعي والعضوي داخل الأمة. إيجاد المؤسسات والقنوات لسد مثل تلك الحاجيات هو ما دعوناه بالجانب العملي التطبيقي.

مضمون الأسلمة

إحياء جانب النظر، وإنعاش جانب العمل، هو جوهر ومضمون الأسلمة. فالأسلمة كما نراها هي إنزال الفكر النقي على ساحة العمل الجدي. فحين ينزل الفكر المبتكر على ساحة العمل يحوله من شكله المعلب الذي خرج على صورته من دواليب ومصانع التنظير، إلى شكل مجرد من رونق التغليف، نزل إلى أرض الواقع واحتك به، فأصبح له في أوساطه فعل وأثر جسد وجوده، إذ أضحت له مع الاحتكاك ليونة تضفي عليه القبول عند محبيه، وخشونة يشمئز منها رافضوه،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وصفات وعيوب ومزايا يتميز بها عند النقاد ورجال الاجتهاد قبولا واستحسانا، أو رفضا ونكرانا.

مثله حين كمال الصورة التنظيرية كمثل النقود الورقية حينما تصدر عن مصانع السكك النقدية وهي بهية الألوان صقيلة الورق، فتنزل الأسواق البنكية والتجارية لتتعامل بها أيدي التجار والصناع وعامة الناس، فتصبح بعد طول التداول لا يلتفت لشكلها مثل ما التفتت لها عينا الناظر أول مرة، وتتخذ لدى الناس المتداولة بينهم قيمة غير قيمة الورق المطبوع الذي يجسدها ويدل على شكلها من يوم خرجت من صنعها، إذ لما أضحت بأيدي الناس يتعاملون بها، أعطاها ذلك التعامل وما يصاحبه من إيمان بها قيمة فعلية بدونها تفقد روحها، وبغيابها لن تعدو أن تكون ورقة مثل باقي الأوراق المطبوعة مهما تنوعت زركشتها وجمالية صورها وخطوطها.

ونحن اليوم في أمس الحاجة لفكر عملي مفيد، تمليه بإلحاح حاجتنا في أوساط جموعنا الإسلامية وجاليتنا المسلمة – وخاصة منها تلك التي تعيش في مجتمعات ارتفعت بأوساطها معدلات العلمنة بشكل ملحوظ ومؤثر، وأضحت مصادر التشريع والقانون بها علمانية صرفة أو قريبا من ذلك، سواء الدول الغربية أو التي تنص دساتيرها على علمانية الدولة رغم تاريخها الديني – إلى تنظير من نوع جديد لبعض قضايانا الفقهية والدينية والاجتماعية، غير متنكر لأصول الشرع ومقاصد الدين، لكنه لصيق بالجانب العملي والتطبيقي داخل مجتمعات تتعدد فيها الديانات، للدين فيها صولته وقوته من حيث الأعراف، والتقاليد، والتعبير الثقافي، والتكوين التربوي، وأداء العبادات، وتعظيم الشعائر، لكن لعلمانية الدولة مرجعيتها وقولها الفصل – شئنا أم أبينا – من حيث القانون العام، والإجراءات الدستورية وتقييد الممارسات التنظيمية.

فلا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن المسلمين بالبلدان العلمانية أو المعلمنة – أي بما فيها البلدان التي ارتفعت فيها معدلات العلمنة بشكل مخيف، فأضحت بلداننا مبهمة العقيدة، دينية تاريخا ومعلمنة واقعا، يتنامى فيها حجم فعل العلمانية بوثيرة وسرعة ماسخة ومشوهة، منبئة بإعادة الصياغة والتشكيل للمعتقد والثقافة والعرف – فلا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن المسلمين بهذه البلدان قد أضحوا في عداد الأقلية من حيث الأثر والفعل رغم قوتهم الديموغرافية. لكنهم سواء في بلدان حديثة العلمنة أو قديمتها، مجموعات لها خصوصياتها، ولها معطياتها الذاتية التي تحتاج إلى معالجة فقهية جديدة تماما، منطلقة من الأصول الإسلامية، لكن منزلة على واقع مخالف للمجتمعات الإسلامية العريقة التاريخ في حضارة الإسلام والتي لم تصل فيها مستويات التغريب والعلمنة درجات تفصل القانون الجاري به العمل بشكل صارم عن شريعة الإسلام.

فهناك شبكة من العلاقات لابد من إقامتها هي من النوع المبتكر لم يشهد التاريخ مثله. وظروف عيش داخل وسط علماني علينا مراعاة بقاء إيجابياته والتي في بعض الأوساط الأوروبية والأمريكية مثلا ساهمت في وجود وانتشار الإسلام، والانطلاق من أن المساس بها – دون تحكم في مصادر التشريع وتوطيد دور المسلمين في صياغة القوانين – يهدد بقاء الأمن والإيمان ووجود الإسلام نفسه، خاصة حينما تكون الذات محل سخط غير معلن من طرف جهات لاتطمئن لوجود الإسلام رغم بعد بلدانه العريقة عن محيطها، فكيف به داخل أمصارها، ثابت الخطى في الانتشار المتنامي بين أفرادها.

وطبعا لن نحاول الإقدام بمفردنا على التنظير لسد مختلف الحاجيات الملحة، أو الممارسة الفورية لعمليات الاجتهاد المطلوب. فنحن أعجز من أن نحصي حجم ما نحتاجه في واقعنا المتشعب الجوانب وما نفتقر في معالجة قضاياه إليه، فضلا عن أن نغوص في البحث في نوازله والاجتهاد في محدثاته. لكن حسبنا في ما نتناوله العمل على إيقاظ الهمم، والدفع للوعي الجماعي بالحاجة والضرورة إلى إحياء جانب النظر، وإنعاش مؤسسات العمل، لصناعة مستقبل نحس فيه بالمشاركة في صناعة التاريخ وتقرير المصير، ونشعر فيه الفئات الثقافية والدينية الأخرى عبر الحوار والمشاركة بالتكافل والتآزر لخدمة الإنسان والأوطان.

وخطة سيرنا لتحقيق ذلك الوعي الجماعي المراد تقتبس طاقتها من الدرس والتحليل من خلال توضيحنا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لمفهوم ومضمون مصطلحات ثلاث : **المستقبل والثقافة والتغيير**.

وقد يتساءل المتتبع لبحثنا لماذا هذه المصطلحات ومفاهيمها ومضامينها بالضبط ؟ ولماذا يتم يتناولها على ذلك الترتيب ؟ فنقول بإيجاز – على أمل العودة للتفصيل في ثنايا تحليل ودراسة كل مصطلح على حدة – إننا اخترنا التطرق لتلك **المصطلحات / الأدوات** وعلى ذلك الترتيب، لغلبة الظن لدينا أنها إذا فقهت وفهمت في أبعادها المشروحة حصل لا محالة جزء هام من الوعي الجماعي المراد، لعلل أساسية ثلاث :

1 – أن المستقبل مجال الفعل :

فالماضي قد ولى، ولا سبيل إلى استرجاعه وإعادة تشكيله، وحسبنا منه استخلاص الدروس والعبر، ونهل الصالح الموروث، النقي من الدخن، من محصول التاريخ ومخزون التراث. وأما الحاضر فماثل أمامنا لا سبيل لتغييره إلا بالمنظور المستقبلي والعمل في المستقبل.

فالواقع الحالي مستقبل لتاريخ مفروض فيه التدوين، وتأريخ لمستقبل هو في طور التكوين. **مستقبل لتاريخ** بني على حوادث ووقائع لنا منها صور ومقاربات، تتجدد بتجدد النظر وإمعان النقد في الأحداث الخاليات، وتنامي المتوفر حولها من المعلومات. **وتأريخ لمستقبل** بني على توقعات وافتراضات، مشحونة بالرغبات والطموحات، وغير خالية كلية من بعض التنبؤات، لكن لصيقة بما يعزم حالا من الأمر، وما يتخذ حاضرا من القرارات.

فالواقع الحاضر مستقبل لتاريخ مضى، لبرامج عمل مفروض فيها الإنجاز، أو تراكم كسل سمح لآخرين بالإنجاز، من بني جلدتنا أو من جوارنا أو مقتحمين لمجالات صناعة غدنا، لغفلة منا أو لضعف ووهن حل بنا، لكنه في كل الأحوال مستقبل لعمل، منا أو من غيرنا. بمعنى أننا لو أردنا افتراضا أن نحصر دائرة الفعل في محيطنا وحده بحيث نكتفي بالذات ونقصي وجود الآخر، فلن يعدو واقعنا داخل هذا الافتراض أن يكون مستقبلا لعمل، أو غياب عمل.

وبقدر ما نقترب من الواقع المشهود بقدر ما نحس بمسؤولية مشاركتنا في إبرازه، وما بلغته أيدينا أو بلغه وقع غيابها في أزمنة خالية من عمرنا في بلورته وصناعته. فلو كان لنا هم الغد البارحة، لسارعنا بتقييم هذا المستقبل المشهود، برغبات وتطلعات وبرامج صناعة ذلك المستقبل المنشود، لنعلم أين الخلل في الصناعة، وما العقبات وما الموانع في إنجاز المراد والمبتغى المنشود. فإن فاتنا ذلك الهم في زمانه، فلنعمد – إن أردنا غدا مريحا ومستقبلا مشرقا – إلى الإعداد للمستقبل والتدوين المستقبلي من اليوم، أما من ظل عن ماضيه أعمى، وعن التمعن في حاضره أعمى، فهو عن مستقبله أعمى وأضل سبيلا.

بمعنى أنه يستحيل الوعي بالحاضر، إذا لم ينظر إلى ظروف انبثاقه بالانتقال إلى أزمنة إفرازه في الماضي القريب، والنظر إليه عبر حركة الزمن وما ترك عليها من أحداث هي من صنع البشر كمستقبل مفروض لتلك الأحداث، وما فجرها من العمل والمنجزات، وما وجهها من التوجيه والقرارات. ونقصد هنا بالزمن تاريخا ومستقبلا، الحركة والفعل من الإنسان كامل الإدراك، سليم الأدوات المعرفية، الكفء لإنجاز الأمانة والمؤهل للقيام بمهمة الاستخلاف. أما في بعده التقني كلحظات متتالية من وقت يستهلك، فلا اعتبار له لدينا بمعزل عن البشر الذي يتجلى فيهم وقعه، وخاصة منهم الصنف الواعي بمفعوله وسريانه.

وتمام الوعي يحتاج إلى الحدة في آلات النظر، والدقة في أدوات البصر. النظر في عواقب الأولين، والبصر في أحوال وأوضاع الحاضرين. ذلك أن **الواعي إذا لم يدرك ما مصيره، اختلت موازينه.** إذ لا يغفل عن مصيره إلا الناسي. ولهذا كان الناس من منظور صناعة الغد حسب التعبير والبيان القرآني(3) صنفان : صانع للتاريخ، مقدم الغد، وخارج من التاريخ، ناس لله، غافل عن لوازم الإعداد لغد.

والغافل يسيء الاحتجاج بالقدر. والواعي مدرك أنه محاط في كل فعله بالقدر، لعلمه أنه هو نفسه جزء من القدر، لصناعة المرغوب من القدر، ومغالبة الموانع والشدائد بمواجهة القدر بالقدر.

3) نقصد بقولنا «حسب التعبير القرآني» ما تنص عليه الآياتان الكريمتان : من سورة الحشر 19 و 20.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

2 – والثقافة أداة الفعل :

إذ أن المسلمين في مجتمعات علمانية أو متعددة الأديان والثقافات يباشرون ممارسة دينهم من الناحية التعبدية بشكل داخلي يهم الفئات المتدينة المسلمة وحدها. لكن في ما يخص التعبير عن الذي يشاركون فيه جنب الفاعليات الأخرى في المجتمعات التي يشاطرونها الانتماء القومي، والخضوع بتكافؤ للدستور والقانون، والمشاركة في الدفاع عن وحدة البلد، وحماية مكتسباته، والسعي لازدهاره، فإن أداة التعبير المتاحة لهم هي الثقافة النابعة من دينهم وقيمهم، وهي قيم إنسانية نبيلة لا تعارض بينها وبين القيم المشتركة بين مختلف الديانات والمذاهب والفلسفات غير الشاذة والمنحلة السائدة في تلك المجتمعات.

3 – والتغيير مسار الفعل :

فنحن لا نرتضي أن تنتقي جموعنا الفكرية والثقافية فكراً من شرق العالم الإسلامي أو غربه تجتر معه قضايا منطقته ومشاكلها وروابط خصوصياتها. بل نسعى لكي ينبثق من هذه الديار ما يمكن من توطين الإسلام بحيث ينظر إليه أنه ابن الدار، لا المهاجر من أقاصي الديار. نريد من جالياتنا المسلمة على ما يلزم من تعزيز روابطها بالعالم الإسلامي، وخاصة بلدان انحدارها الجغرافي في ما يخص الجانب منها ذي الأصول المهاجرة، أن تحافظ على المكتسب من المنجزات التي حققت في مجال ممارسة الدين الإسلامي، وأن تصبح في الميدان الفقهي والفكري والثقافي رافداً من الروافد التي على اختلاف خصوصياتها وأنواعها، أمدت وتمد الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي بالدم الجديد والعطاء المتنوع.

وفي انتظار أن نفصل الكلام حول كل من هذه الأدوات الثلاث في بحث مستقل في الأعداد اقادمة إن شاء الله، نود التذكير بما أشرنا إليه في بحث سابق(4) من أن من مناهج الإدارة المعاصرة، نموذجين بارزين : الإدارة بالأهداف والإدارة بالكوارث. ومازلنا في معظم مجتمعاتنا الإسلامية رغم الفكر المقاصدي الذي تتميز به شريعتنا نعمل بنموذج الكوارث، فلا نتحرك إلا حين تحل الكارثة، وننشغل بها إلى أن تنسينا فيها كوارث أخرى أدهى وأمر، وقد نعمد إلى تحرير نوع من الخطاب السياسي والأدبي لجعل الكارثة نصراً، وقلب الأهوال ظفراً، ظنا منا أن ذلك فيه نوع من التخفيف عن النفس، وعدم فقدان الأمل، بيد أن الداء العضال هو أن لا عبرة عند معظمنا لا للأهداف ولا للعواقب.

فكم نقرأ في كتب التراث عن السيف والنطع يأتى بهما لدى حاكم من الدرجة الثالثة أو الرابعة، فتقطع رأس شاعر أو أديب أو عالم سبق أن قال – أو ادعي أنه قال – في ذلك الحاكم ساعة نشوة أو غضب قولا ظل متابعا به دهرا، يهدر من أجله دمه هدرا.

ورحمة بنا يبعث الله تباعاً غرباناً تبحث في الأرض لترينا كيف نواري سوءاتنا بعد قتلنا لذواتنا، فمن غراب حقوق الإنسان، إلى غراب الديموقراطية، فغراب حقوق المرأة، ثم غراب العولمة، ثم أبو الغربان الحديث العهد: الحرية الدينية. ويوم نقذف بالحق على الباطل، ونصيح ياويلتنا، أعجزنا أن نكون مثل هذه الغربان، ينتهي درس الغراب، ويتوب الله على من تاب.

الرباط – محمد بريش

4) «حاجتنا إلى علوم المستقبل»، محمد بريش، مجلة «المسلم المعاصر»، العدد 61، خريف 1412 – 1991، ص : 45 – 88.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

توطيدُ الأسلمة في أوساطٍ مُعلمَنة

الفصل الأول

المستقبل مجال الفعل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

توطيد الأسلمة في أوساط معلمنة

المستقبل مجال الفعل

للأستاذ محمد برّيش
مدير مجلة دعوة الحق
مهندس خبير في الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية
- الرباط -

المستقبل مجال الفعل :

نقصد بمفهوم «المستقبل» في دراستنا صور الغد القريب الناتجة عن استشراف علمي للقادم من الأزمنة، من خلال إعمال محكم ودقيق لعلوم المستقبل المعاصرة، داخل أفق يمتد من بعد قصير المدى فمتوسطه بالنسبة لمآلات القرارات المتخذة حاضرا لاختيار بديلها الأصوب والأنجع، إلى بعد بعيد المدى بالنسبة للمقاصد والتوجهات، وما يلزمها من وسائل وطاقات، تسمح بصياغة المخططات والاستراتيجيات، من خلال الوعي بمضمون دائرة المستطاع اليوم ودائرة المستطاع غدا، على جميع الأصعدة الفاعلة والحية المحققة للمقاصد والغايات المرجوة.

ومن ثم فتحديد المفهوم يتجلى في مساءلة فنون دراسات وعلوم المستقبل المعاصرة عما تعنيه وما تقصده من مصطلح «**المستقبل**» حين تتطلع لاستشرافه وتكهن مضامينه وأشكال حركاته وتياراته. و«**علوم المستقبل**» أو «**دراسات المستقبل**»، أو «**الدراسات المستقبلية**»، أو «**فنون استشراف المستقبل**»، أو «**المستقبلية**»، هي قبل كل شيء منهج علمي، وموقف فكري، وتصرف عقلي، للتحكم في مسار الحاضر، ليس من خلال ادعاء التمكن من إدراك كلي لمضامين المستقبل، فذلك ضرب من المحال - ولو صدقت مقولات التنبؤ يوما ما بالصدفة - بل بتوجيه الحاضر نحو المستقبل المراد والغد المنشود.

فالأمر لا يتعلق بتصرف سكوني اتجاه ميولات الحاضر بمسايرة دوافعه وتياراته، فذلك موقف سلبي، لادور للفكر فيه، لأنه يقضي بانتظار التغيير ثم الخضوع لحتميته. ولا عزما على تأريخ أحداث المستقبل، لأن ذلك ضرب من الكهانة لايدعي علميته إلا سفيه أو محتال. ولكن ومستقبلات مرجوة، مع ترقب عقبات في وجهها محتملة، وموانع في طريقها متوقعة.

فالتعامل مع المستقبل من هذه الوجهة لايتعلق برد فعل مع المداهم والمباغت من النوازل والمدلهمات، لأن المسألة ليست إقصاء لعمليات مجابهة الضار من الدوافع والجاذبيات، والشديد البأس من الموانع والعقبات، وإغفال الإعداد والتهيؤ لها إلى حين بزوغها، ذلك أن أية منازلة لها على ساحة التاريخ هي منازلة خاسرة، فعجلة التاريخ عجلة ساحقة.

ولكن المسألة فعل بدل رد الفعل، ينطلق أساسا من إعمال للفكر والذهن في معالجة الواقع على بصيرة وبعد زمني عبر تكهن علمي بمدى سطوة تلك الدوافع والجاذبيات قبل مجيئها، ومدى حدة عوائق الموانع والعقبات قبل الوصول لها، إعدادا وضمانا لسلامة

وإشارات منتقاة من مسودة مشروع تنظيري نعده للنشر حول هذا العلم الضروري، ثم تناوله من وجهة نظر ترمي لجعله عنصرا أساسيا من عناصر الاجتهاد المعاصر، مدخلا من مداخل إتقان البث في المستحدثات والنوازل داخل ساحة واقعنا المتقلب.

ولهذا كان مفيدا ونحن نتطرق لمفهوم «**المستقبل**» الذي هو أس كل معالجة استشرافية وبرنامج تغيير مستقبلي، أن نقدم نبذة مركزة عن القصد من تلك العلوم والفنون لنمارس من خلال التعريف ذاته منهجا للغوص في تحليل الواقع المعاصر، وكيفية البحث عن تحديد العوامل الفاعلة في تقلباته، والدالة على أشكال تغيراته.

ونشير بدءا قبل التطرق لمقاصد فنون المستقبل ومضامينها إلى أن هناك أنواعا متعددة لهذه الفنون تختلف باختلاف موضوعها ونماذجها، منها السلبي ومنها الإيجابي. أما السلبي منها فلن نطيل الكلام حوله لأنه بعيد عن المنهج العلمي، لصيق بالخرافة وادعاء علم الغيب، بل لايصنف بتاتا عند العديد من الخبراء ضمن علوم المستقبل، وإن كان غير عديم الفائدة في مجالات الأدب وإبداعاته القصصية المعتمدة على نسج الخيال، أو البرامج الإعلامية والمواد السينمائية التي قد تسد عطشا معرفيا أو حاجة ترفيهية من خلال التلويح بالعقل في سراديب الخيال ومتاهات المحال.

وحسبنا في هذا التعريف الموجز الإشارة إلى ثلاثة أنواع من **النمط السلبي** لاتفيد لا في المجال الأدبي ولا في المجال العلمي، حددها بدقة شيخنا وأستاذنا في هذا الفن، عميد المستقبليين العرب، **الدكتور أبو سليمة المهدي المهدي المنجرة** حفظه الله، تباعا كالآتي(3) :

نوع يمكن تسميته بـ «**المستقبلية التراجعية**»، يقاوم الحاضر بتبرير الماضي عوضا عن ابتكار المستقبل.

ونوع يمكن نعمته بـ «**المستقبلية التخديرية**» يلجأ إليه بعض الساسة ومن في فلكهم حينما يصبح الواقع لا يطاق لتبرير هروبهم إلى الأمام، وقرارهم من معالجة الحاضر، من خلال سيل من التمني بعهود قادمة من الرخاء، بوابل قرارتهم وتصرفاتهم، أو العمل قيد شبر استعدادا للوفاء بتعهداتهم.

● نوع يمكن أن نصفه بـ: «**المستقبلية الاحتكارية**» حين يكون على المستوى الدولي، أو بـ: «**المستقبلية الانتهازية**» حين يكون على المستوى الوطني، يعتمد أسلوب التأثير على الحركات الفكرية في حصر الأولوية لفائدة تصوراته المستقبلية، دون أخذ رأي المعنيين بالأمر أو استقراء رغباتهم وتطلعاتهم.

أما أبرز أنواع **النمط الإيجابي فنوعان:**

● نوع يمكن أن ننعته بـ : «**المستقبلية الاجتماعية**»، ويتميز بكونه نقدا اجتماعيا يعتمد أساسا على المستقبلية العكسية من خلال استقراء نقدي لتاريخ الظاهرة أو المنظومة المراد دراستها. وهو منهج علمي لكونه يعمد إلى إعمال منهج دراسي نقدي وتحليلي يقوم بتشخيص الحاضر وحركته وتوجهاته من خلال دراسة جينات انبثاقه ومسر تطورها في الماضي، ويمحص المستقبلات الممكنة التي تتولد عنها، ليستطيع بعد ذلك إدراك الاتجاهات الضخمة التي جعلت الكفة تميل جهة أحدها فقط، والمتمثل في الحاضر.

● ونوع يمكن أن ننعته بـ:«**المستقبلية القرارية**»، وهي تهدف أساسا إلى صياغة مشاهد للمستقبل تساعد على صناعة القرار وتوجيه مساره نحو الدقة، وذلك من خلال بسط ملامح تبدو مريحة على صعيد التفكير في المستقبل وتوجساته، لكنها تشحن بآمال تحققها طاقات رجالات القرار صوب العمل المتقن، والممكن من تجسيد الأكثر إمكانية والأصوب قصدا من تلك المشاهد على أرض الواقع. وانطلاقا من مقصدها القراري، يكون منهجها شديد العناية بمآلات القرار ومعوقاته وانعكاساته المحتملة، ومدى تحقق الأهداف المتوخاة منه، تستخلص منها مشاهد يمكن أن يطمأن إليها حين العزم باتخاذ القرار المراد أو عدمه.

---

3) د. المهدي المنجرة، «من أجل استعمال ملائم للدراسات المستقبلية»، مجلة عالم الفكر، المجلد 18، العدد 4، شتاء 1988، ص 3 ـ6.

التحصين وبلوغ مستويات واقية من المناعة حين مقابلتها أو مواجهة مثيلاتها.

وإعمال الفكر والذهن تبصرا واستشرافا ممكن في وجه تلك العقبات والموانع، والجاذبيات والدوافع، من الترقب الراقي والإعداد الواقي بعد بلوغ درجة من الظن الواعي بمباغتتها، ودراسة جدوى التحسب لاحتوائها، بعيدا عن عمليات التهويل والتخويف الصادرة غالبا عن فعل جهات ومؤسسات وتنظيمات تدفع بشتى الوسائل والحجج جهة الإيمان المطلق بحتمية وصدق ما ترمي به من التوقعات، وتحول بتلفيق في الأسلوب والمنهج دون التشكيك في استحالة وقوع ما تنذر به من التنبؤات.(1)

لذا كانت «**المستقبلية**» موقفا فكريا من جهة لابتسار نظري تصوري واع لحركة التغيير القادمة، وتكهن لما يبشر أو ينذر به تطور الأوضاع القائمة والأحداث المتفاقمة، وتصرفا عقليا من جهة أخرى لدفع عجلة التاريخ ورحى الأحداث نحو مستقبل منشود محدد سلفا، ووضع مرغوب معلوم مسبقا.

والمستقبلية زاد للوعي الجماعي، وإلا فلا حاجة لها على الإطلاق :

● **وعي جماعي** بأن الأمة معرضة للزوال في حالة عدم تبصر الخطر المحدق بها في كل قرار أو حركة جهة العقبات التي عليها اقتحامها، وإدراك درجة الكوارث المحتملة المانعة من إنجاز المصالح ودرء المفاسد حماية للفرد والمجتمع، وإقامة موازين الحق والعدل التي تتوخاها في مجتمعاتها ومحيطها، على مستوى يتجانس مع طموحاتها والمتوفر لديها من الوسائل داخل دائرة الممكن حالا، وما قد تتسع له أو تضيق به مآلا.

● **وعي جماعي** بانعكاس الخطر على الجميع أفرادا وشعوبا وحكومات ومؤسسات حين غياب الإيمان بضرورة العمل لصناعة الغد المشرق من خلال تعزيز الموجود وإيجاد المفقود من المصالح، والحرص على درء كافة الأخطار ولامفاسد المهددة للبقاء.

فإنعاش الذاكرة الجماعية هو الهدف الأساس من المستقبلية، وأس ذلك الإيمان والعمل، ومحاربة التآكل المعرفي، والحيلولة دون تآكل الذاكرة، هما المقصد الأسمى من الاهتمام بعلوم المستقبل، وأس ذلك العلم والتواصي بالثبات على الحق، والصبر على مواصلة السير، لبلوغ الأهداف المرسومة لازدهار الأمة ودوام السؤدد لها.

ولقد سبق أن شرحنا بتفصيل دي دراسات سابقة دلالات مصطلح «**المستقبلية**» من خلال أهم ما نشر من الدراسات الاستشرافية بالبلاد العربية والغربية المعرفة لمفاهيمه يمكن أن يرجع إليها.(2)

وحسبنا في هذه الفقرات تقديم بعض التوضيحات الضرورية حول القصد من إعمال علوم وفنون دراسات المستقبل المعاصرة في معالجة واقعنا حتى نعي المراد من مفهوم «**المستقبل**»، من خلال عرض مركز لبعض الرؤى والمرتكزات والمناهج لتلك العلوم والفنون ورجالاتها ومؤسساتها ومدارسها، استخلصناها من تجربتنا المتواضعة، ومشاركتنا الدولية في مجال الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية. وهي توضيحات

---

1) مما تقوم به تلك المؤسسات والتنظيمات مثلا تخويف شعوب الغرب وغيرهم من الإسلام،من خلال ادعائها أن المسلم أيا كان وحيث كان إرهابي الطبع، حلف الخلق، لايمكن الاطمئنان لمواطنته وسماحته.وهي في ذلك تعتمد على ترويج أفكار مغلوطة ومكذوبة،وصناعة افتراءات متناقضة، وتضخيم أحداث من الواقع ظرفية ومنعزلة، لتبرير المواقف، وتأكيد مشاهدها وتصوراتها المفزعة.

2) انظر مثلا دراستنا بعنوان «حاجتنا إلى علوم المستقبل»، مجلة المسلم المعاصر،العدد 61، خريف 1412ـ 1991،ص 45 ـ 88؛ ومجلة المستقبل العربي،العدد 144، فبراير 1991،ص 21 ـ51. وكذا دراستنا بعنوان «في سبيل استشراق محكم لمستقبل الثقافة في العالم الإسلامي»،مجلة الهدى، العدد 31، ذو القعدة 1415، أبريل 1995، ص 22 ـ 28.

وكثيرا ما نجد الدراسات المستقبلية اللصيقة بالمجالات السياسية والاقتصادية محتاجة ومستعملة لكلا النوعين المذكورين. محتاجة للأول لمعرفة شكل المستقبلات الممكنة، ومستعملة للثاني لاختيار بدائلها حين العزم على قرار يتعلق بإنجاز المتوخى والمرغوب من تلك المستقبلات

ولا نستغرب كون بعض الخبراء يرون في **المستقبلية** نوعا من الانتقام العقلاني من وقع جهل العقل بمعظم نتوءات وتجاعيد تطور الحاضر، لكننا دون أن نسلك نفس المذهب نراها نوعا من التحدي المعرفي المشحون بالآمال للتغلب على عقبات تحليل تطورات واقع المجتمع. وهي تأخذ أهميتها من شح المعلومات حول شكل القادم من الأحداث داخل ذلك المجتمع. بل وجدنا بعضهم يعرفها تعريفا واضح العيب والخلل يتهكم فيه قائلا : «**إن المستقبلية، وخاصة منها المستقبلية الاجتماعية، هي بالتأكيد وفي آخر المطاف ما كان ينبغي أن نفكر فيه ابتداء من اليوم للمنظومة الاجتماعية القائمة**».(4)

ولو تمعنا في القول لوجدنا صاحبه يخطو على خطى الفيلسوف الفرنسي «**غاستون باشلار**» (Gaston Bachelard) حين قوله : «**الواقع الحقيقي ليس ما نظنه، بل هو دوما ما كان يلزم أن نظنه**».(5) ثم يضيف نفس الباحث المستقبلي المتهكم لينهي تعريفه بكلام مقبول:

«**المستقبلية الاجتماعية هي ما يلزم أن نعلمه عن منظمة المجتمع في الوقت الذي نضع أنفسنا موضع المتوقع لما هو محتمل الوقوع. وهي بذلك لاتعدو أن تكون إعادة بناء مستمر للحاضر الاجتماعي انطلاقا من معرفة أحسن لماضيه، وتساؤل مراقب علميا عن مصيره**».(6)

ولهذا صنفت المستقبلية كعلم حديث من طرف علماء الاجتماع ضمن إحدى الشعب الجديدة لعلم اجتماع المعرفة. ويرون أن الهدف الأساس منها ليس تقديم أجوبة عن أسئلة معدة سلفا، ذلك أن التساؤل حول المصير مبدئيا يسبح في جو كامل من الحرية، من المفسد للمنهج العلمي تقييد فسحته وتحجير اتساعه إلا بما يمنع من الدخول إلى دروب المحال، أو الغوص بعيدا عن سليم المنطلق في متاهات الخبال. بل الغاية منها الوصول إلى كيفية علمية أسئلة محددة ودقيقة، من النوع الذي تبقى أجوبته مفتوحة أمام عديد من التفسيرات والقراءات مهما كان موضوعها. بمعنى أن الصرامة الإبستيمولوجية هنا تتجلى أساسا على مستوى صياغة السؤال، وليس على مستوى تحرير الجواب.

وأراهم نحو ذلك المنحى لكون السؤال تعبير عن إيجاد منفذ، يملي رغبة في التطلع، ويعبر عن عطش معرفي يولده القلق حول المصير. أما الجواب فالغاية منه أن يوجه قرارا، أو يملي حلا، بعد أن يستغرق الذهن في التفكير حول ماهية وموضوع السؤال. ولهذا كانت الصرامة الإبستيمولوجية بالفعل ضرورية على مستوى السؤال، وليس على مستوى الجواب. لكن لايعني هذا أن الجواب يظل دون قيمة.

ولا غرو أن نجد المبرزين من الخبراء في فن المستقبلية يحصرون مهامها في ثلاث :

- مهمة التوقع.
- مهمة الإعداد للاختيار أو اتخاذ القرار.
- مهمة النقد العلمي للحاضر، أو إعادة القراءة للماضي.

وانطلاقا مما تقدم. تكون المستقبلية عبارة عن منظومة أدوات معرفية ومنهجية، تعتمد في تحاليلها أسلوبا نقديا مسترسل التساؤل العلمي حول ثبات

4) " Prospective et société", travaux et recherches de prospective, n°28 , la Documentation Française, n° 14 p.2 mars 97.
5) G. Bachelard, "la formation de l'esprit scientifique 8ème édition 1970 p. 13, Vrin.
6) نفس المرجع المذكور فوقه"prospective et société".

الفرضيات التي انطلقت منها لتصور التطورات والتغيرات للموضوع المدروس أمام إمكانية صدق توقعاته، تستخلص منها مشاهد محتملة الوقوع، وأشكال لرسم مسار التطور والتغيير المرتقب.

تلك الأدوات المعرفية مكونة أساسا من قوالب علمية وبحثية لتحديد فرضيات لتطور وتغيير الموضوع المعالج، محكمة الصياغة، مترابطة فيما بينها وبين منطلقاتها ومسار تطورها وتطور الواقع الذي تعالج فيه في جميع أبعاده وميادينه المتعددة والمتشابكة، لكنها ليست على أي مستوى جردا ليقينيات أو أحداث حتمية الوقوع. فلا هي علم اليقين بالمستقبل، ولا هي منهج للتنبؤ الحتمي بل هي قائمة أسئلة معمقة حول المصير، دقيقة من حيث الصياغة، مراقبة علميا في كل مرحلة من مراحل صياغتها، ومعتمدة على مجموعة من الملاحظات الدقيقة.

ولا عجب أن نجد ترابطا عضويا متينا بين الحاجة عند الإنسان للمعرفة والتفكير في المستقبل. فالحاجة تترجم عند الراغب فيها إلى هدف، ويحول التخمين في تحقيقها لديه إلى مشروع لا مجال لاستكمال ظروف تنفيذه إلا بعمليات التبصر والتدبر في الزمن القادم المراد تحقيقه فيه، واستطلاع مختلف الموانع والعوائق التي تقذف بإنجازه إلى أمد أبعد، أو تفرزه على شكل أقل من المرغوب ولامرتقب، أو تحرم المشروع من الوجود أصلا. فهناك من يرى أن الحاجة هي التي تملي الرغبة في استشراف المستقبل وسبر أغواره، لمعرفة متى يتحقق إشباع تلك الرغبة، وفي أي وسط يمكن أن تستجمع ظروف تلك الحاجة. وهناك من يرى أن الخوف هو الذي يملي كل ذلك. فالخوف من القادم وأهواله هو ما يولد الرغبة في استشراف المستقبل. والخشية من زوال الطمأنينة – أو الحرص على توفرها – هو الذي يدفع لمعظم ذلك. وما نرى هؤلاء إلا مؤكدين على ما لعمليتي الترغيب والترهيب من دور في تحيز الذات الإنسانية.

وللأسف أن علماء النفس المسلمين لم يولوا هذا الجانب مزيدا من الاهتمام، إذ ظلت علومنا الاجتماعية والسلوكية في أمس الحاجة إلى توسيع مجالات الدراسات الأكاديمية والبحوث العلمية للبرهنة والتأكيد على كون الرغبة والرهبة عنصران أساسيان لتحفيز همم الفاعلين في كل زمان ومكان. فالخطاب الدعوي لمختلف الأنبياء والرسل قد اعتمد على تحريك هذين العنصرين بفعالية تشحن حوافز الجمهور المخاطب، وتثير الاهتمام لديه.

ونحن لا نقصد من هذا التعريف بالمفهوم التوغل في التنظير لعلوم المستقبل من وجهة تنطلق من مرتكزات الثقافة الإسلامية. لأننا لا نرى ضرورة في تفصيل ذلك، إذ أننا لاننتظر من دراسات المستقبل حلا شاملا لمعضلات قائمة، أو قرارا ناجعا لفك إشكاليات حاصلة، وإنا حسبها بعد الوعي بنتائجها وتوصياتها الإحاطة إجمالا بالموضوع، وتوجيه الأنظار لمختلف مركباته، وشكل حركاته، والمسار المتوقع لكيانه، المحدد لشكل مآلاته ولهذا كانت عنايتنا في هذا التعريف بمفهوم «**المستقبل**» منكبة على مقاصد الفنون والعلوم المتعلقة بصياغة مشاهده لتوجيه تلك الأنظار نحو الغايات، لاتهويل الذات من خطر المستقبلات. ولن نتردد كلما سنحت الفرصة أن نعيد ما سبق أن نادينا به في دراسات سابقة – خاصة في عصور طغت فيها التقلبات، واشتدت فيها وثيرة وحدة التغيرات – ما أصبح شبه القاعدة عندنا من أن «**البت في الحال، يقتي الإحاطة بالمآل**».

ونحن حين نعالج المستقبلية، ونمارس عمليا دراسات المستقبل، فنمعن النظر استشرافا لآفاق عملنا الحالي والظرفي، في سبيل أن نقدم حاضرا داخل حقلنا الإسلامي على تصحيح ما ينبغي تصحيحه، وتغيير ما يلزم تغييره، لن نعدم من يصيح في وجهنا من بني قومنا وإخوتنا، ممن يشاطروننا الدين والعقيدة، ويحملون معنا هم الأمة، ويباشركوننا الانتماء لعالم الإيمان وأسرة الإسلام، منبها كلما باشرنا الحديث عن المستقبل أننا نمشي في هذه الدنيا بقدر، وأن لا حركة لنا ولا سكون إلا بما قدر الله، ووفق ما قدر الله.

بل نحن حين نشق طريقنا على خطى ونهج نود أن يبلغنا الأهداف التي نرجو، ونحقق على دربه الغايات

التي إليها نصبو، نسلم بأنه لم يبرح مكانه من راقه من أهل ملتنا وضع **الذمي** في حضارة القهر المعاصرة، واكتفى في حقها بترديد أوراد تطول أو تقصر من السب والشتم للآخر، وألوان شتى من التأسي والتمني حول زمن الأسلاف وإنجازاتهم، صارخا في صفوفنا – وهي تغالب أقدار الواقع تعاكس جاذبية أتعسها بالطموح والسعي لأخيرها مع الدعاء المتواصل لله المقدر والمغير، كلما عزمت على استشراف ما توده من أزمنة قادمة راغدة توجه صوب شروطها عملها الحالي وسيرها الحاضر، حذرة من ضغط الجانب الفاتك من رحى تداول الأيام – مغلظا لها القول معاتبا ومرددا أن «استشرفوا ما ئتم من المستقبلات، فلن تسيروا إلا حيث أراد الله !».

ولقد شقينا إن لم نكن نعلم أننا ماضون في كل حالاتنا وأحوالنا وحركاتنا حيث أراد الله. إلا أننا نسمح لأنفسنا – انطلاقا مما تعلمناه من ديننا وما استنبطناه من شريعتنا – أن حجج هذا الصنف من المعاتبين داحضة. فهي من النوع الذي مضمونه الشكلي حقيقة، وقوام كلماته صدق، لكن أريد به تبرير كسل عن فعل لازم، أو منع من إقدام على عمل ضروري، أو استسلام لأمر حاصل، مع ترويج خطاب يدعو لاستقالة من مغالبة الحاضر في انتظار الرجوع إلى عهد السلف، والاكتفاء مثل أصحابه بالعيش في وضع الذمي من الوجهة الحضارية بجميع مقاييسها، والاستمرار في أداء جزية جماعية نؤديها من حريتنا في إنجاز تطلعاتنا للعيش السليم، والحفاظ على ديننا القويم.

بل ننطلق من كامل اليقين بأن الإيمان لايكتمل عند المسلم إلا بالإيمان بالقدر، وفق ما خطه الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث جبريل المشهور :

«... قال : فأخبرني عن الإيمان، قال : أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال : صدقت...».(7)

حجج المعاتبين الداحضة في ساقها الشكلي مشحونة بالحقائق، لكن في سياقها التبريري مقرونة بالمغالطات. فلا يلزم ولا يعقل بحال أن يلغي من ساحة الفعل والأقدار المصرفة له – بالوعي المعكوس أو المنعدم للموضوع والمقاصد والغايات – عدل الله عز وجل وقسطه. ولا يستحسن على أي وجه كان، الانطلاق من تلك الحجج، المبنية على قصور في الفهم وضعف في إدراك المعاني، لضرب سريان مفعول الأمانة الملقاة على بني آدم على مختلف الأزمنة والعصور.

أليس الله عز وجل هو المعاتب على من قالوا أنطعم من لو يشا الله أطعمه ؟ أليس الله سبحانه وتعالى هو الزاجر لمن قالوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آبؤنا ولا حرمنا من شيء ؟ ومن رام أننا ننفرد بالرأي في هذا المجال فليتدبر القرآن. يقول الله عز وجل معاتبا للكافرين، وداحضا تبريراتهم وحججهم للاستمرار في ضلالهم، في آيتين اخترناهما للمثل لا للحصر :

○ **الأولى : ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروالللذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه، إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾**.(8)

○ **الثانية : ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا. قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن، وإن أنتم إلا تخرصون﴾**.(9)

فهذان مثلان يعاتب الله فيهما على قوم يحتجون في وجه من يدعوهم للإصلاح بالقدر. الأولون يدعون أنهم

7) الحديث رواه مسلم في أول كتاب الإيمان رقم 8، والترمذي في كتاب الإيمان رقم 2738، وأبو داود في كتاب السنة—باب القدر، رقم 4695، والنسائي في كتاب الإيمان، باب نعت الإسلام،8/97. كما أنه ثاني أحاديث الأربعين النووية، وله شروح كثيرة.

8) سورة يس، الآية 47.

9) سورة الأنعام، الآية 148.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لايريدون تغيير قدر الله، والآخرون يزعمون أنهم لايستطيعون مخالفة قدر الله. فهل أجازهم الله على مواقفهم وأفعالهم أم أنكر زعمهم وادعاءهم ؟

ونحن لا نريد في سياق كلامنا أن ندخل في متاهات فلسفة القدرية وما جرته من جدال وصراع مدمر ومكبل بين مختلف الفصائل التي تصارعت في أزمنة سابقة في تاريخ أمتنا الإسلامي بين الجبرية والمعتزلة، لكن أشير إلى ما قاله أحد الأئمة الأعلام، والسلف العظام، الإمام **ابن القيم** رحمه الله، في كتابه القيم «**مدارج السالكين**».(10)

«وراكب هذا البحر في سفينة الأمر، وظيفته : مصادمة أمواج القدر، ومعارضتها بعضها ببعض، وإلا هلك. فيرد القدر بالقدر. وهذا سير أرباب العزائم من العارفين. وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني : «الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا فانفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق. والرجل من يكون منازعا للقدر، لا من يكون مستسلما مع القدر». ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض، فكيف في معادهم ؟

والله تعالى أمر أن تدفع السيئة، وهي من قدره، بالحسنة، وهي من قدره. وكذلك الجوع من قدره، وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره. ولو استسلم العبد لقدر الجوع مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات، مات عاصيا. وكذلك البرد والحر والعطش كلها من أقداره. وأمر بدفعها بأقدار تضادها. والدافع والمدفوع والدفع من قدره.

وقد أفصح النبي ﷺ عن هذا المعنى كل الإفصاح، إذ قالوا : يارسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقى نتقي بها، هل ترد من قدر الله شيئا، قال هي من قدر الله».(11)

ثم يضيف إمامنا ابن القيم رحمه الله بحجج دامغة، شارحا أنواع دفع القدر بالقدر :

«ودفع القدر بالقدر نوعان :

أحدهما : دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه – ولما يقع – بأسباب أخرى من القدر تقابله، فيمتنع وقوعه. كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثاني : دفع القدر الذي وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بالتداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان.

فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار، لا الاستسلام لها وترك الحركة والحيلة، فإنه عجز. والله تعالى يلوم على العجز، فإذا غلب العبد، وضافت به الحيل، ولم يبق له مجال، فهناك الاستسلام للقدر، والانطراح كالميت بين يدي لاغاسل يقلبه كيف يشاء. وهنا ينفع الفناء في القدر، علما وحالا وشهودا. وأما في حالة القدرة، وحصول الأسباب، فالفناء النافع أن يفنى عن الخلق بحكم الله، وعن هواه بأمر الله، وعن إرادته ومحبته بإرادة الله ومحبته، وعن حوله وقوته بحول الله وقوته وإعانته. فهذا الذي قام بحقيقة ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ علما وحالا. وبالله المستعان.

ونحن قوم بالطبع والفطرة لا نقول بسخرية القدر، لعلمنا أن القدر وهو على صنع ونهج رباني لايسخر، ويستحيل أن يسخر. وكيف يسخر وهومجال فعل لكل مكلف فيه من الحرية والحركة على قدر ما يمتطيه من أقدار الله المفسوحة أمامه، يفر من هذا إلى ذاك، يمتطي الأجود والأسرع من مراكب أقدارها لاختيار بدائل أقدارها، ويغالب المشهود والوشيك من أنواعها بما يتوق إليه من أحاسن أصنافها، مثلما قال عمر رضي الله عنه حين أبى أن يدخل الأرض التي قصد وقد حل بها الطاعون: «أفرار من قدر الله ؟»، فكان جوابه القاطع البليغ : «نفر من قدر الله إلى قدر الله».

10) ابن قيم الجوزية، «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى 1412-1991 ج1، ص232 ـ 233.

11) الحديث رواه الترمذي وصححه، رقم 2065، ورقم 2148، وابن ماجة، رقم 3437، والحاكم 4/402.

ومعنى ذلك أن الصالحين من عباد الله يسعون – ضمن نطاق التكليف وداخل دائرة أقدار الله – إلى التنقل من قدر الله، وأوسع لهم رحمة، وأضمن لهم ثباتا على الدين وممارسة لتعاليمه. من هنا كانت الكلمة البليغة للشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني رحمه الله نوعا من الحكمة التي لايستوعبها إلا العارفون أولوا الألباب والنهي حين قوله : «والرجل من يكون منازعا للقدر، لا من يكون مستسلما مع القدر».

فالإيمان بقدرة الله وقدره على المنحى السلبي الذي نراه اليوم في مجتمعاتنا، والمنعدم الوعي للفرقد بين التوكل والواكل، المفقد للإنسان طموح التغيير والإقدام على المبادرة، إيمان أجوف لا أس صلب له. بل الإيمان القويم المتين أن تضع قدر الله داخل مجال فعلك، وأن تغالب الأقدار التي لا مفر لك منها، تستجلب في محيطها صراعا ودفاعا وتدافعا قدرا أحب إلى الله، تكون فيه أقدر على القيام بما كلفت به من الله جل علاه، لإعلاء كلمة الله، خدمة لخلق الله، وحفاظا على موازين الصلاح في الكون المسخر للإنسان من الله.

وسعيا لإبعاد تلك الرؤى السلبية التي رسخت في أذهان العديد من أفراد عالمنا الإسلامي، نقدم فيما يلي مجموعة من المعلومات المركزة عن فنون المستقبل موضوعا وغايات، لأننا لمسنا أن عديدا من جمهور المثقفين المسلمين قد اختلطت لديهم مفاهيم التخطيط والاستشراف والتدبير، وآخرون لايميزون بين القدر والإعداد للغد، لعلنا نكون بذلك قد ساهمنا في إزالة الغموض، وشاركنا في تنوير النهى حول الغايات من إعمال فنون المستقبل وأدواتها المعرفية، للبت في قضايانا اليومية.

1. لعل الخطر الكبير الذي يتهدد «**علوم المستقبل**» أو «**المستقبلية**» هو ذاك الكامن في إطارها الإبستيمولوجي المستمر التطور والتبلور، لأنه لصيق بالعلوم الاجتماعية. فالمستقبلية منهج يخشى على الآخذ به حين التطبيق أن ينشغل بتحديد العوامل الفاعلة انشغالا يجد له حلاوة وجاذبية تبعده عن الصرامة الإبستيمولوجية الضرورية والمواكبة لجميع مراحل البحث والدراسة، وتدفعه لتحميل المصطلحات المستعملة مفاهيم وتفاسير يمليها العناد لدى الخبير أو الباحث من جراء ميولاته الفلسفية والمذهبية لتفسير وتدعيم رؤيته ونظرته للموضوع المدروس مع مختلف صوره، وعدم وعيه العميق دون استعصاء فقه عوارضها وظروف انبثاقها، أو غموض بعض مظاهرها عليه كلية، فيلزم المنهج تحليلا يجد له نوعا من المنطق، وشكلا من التبرير العلمي، لكن يرفضه النسق الإبستيمولوجي حين إعمال النقد، وإعادة التركيب، وتوجيه سهام التساؤل حول مبررات النتائج وعلل الفرضيات.

2. والخطر يكمن خاصة عند المهتمين بتلك العلوم والفنون في عدم التمييز بين «**التداول**» و«**التقدم**». فتداول الأيام سنة من سنن الله في الكون، قائمة دائمة إلى أن يشاء الله، وهي الأساس في التغيير. وهو مخالف للتقدم الذي قد يحصل حين التداول أو لا يحصل. ونحن إذ نشير لذلك، لانريد فتح باب لتحديد كلا المصطلحين، ولكن لنلاحظ هناك عددا من المفتونين بالتقدم والتطور العلمي، يدعون أن المستقبل هو لمن له قدم راسخة في المجال الاقتصادي، وباع متصاعد في الميدان التكنولوجي، حتى إذا ما عالجوا ظواهر النسيج الاجتماعي الذي يتبلور فيه ذلك الاقتصاد، وأمعنوا النظر في مناخ تطور تلك التكنولوجيا، تبين لهم دور الجانب الإنساني والثقافي داخل المجتمع، فانهالوا حينئذ على صياغة تبريرات يلبسونها لبوس العلم والمنطق، يبرهنون بها على تأثير أوضاع الاقتصاد والتكنولوجيا على ذلك الجانب الإنساني، ليعودوا إلى ديدنهم الأو وهم مقتنعون.

3. ويسقط في نفس الخطأ الذين ينطلقون من السؤال : «**ماذا سيقع في سنة 2000 أو ما بعدها من السنوات ؟**». فهؤلاء ليسوا مع المنهج المستقبلي الإبستيمولوجي في شيء. لأن الهدف الأساس من المستقبلية ليس كتابة تاريخ وقائع الأزمنة القادمة – مهما تعددت الوسائل العلمية لتكهنها – ولكنه النظر في إمكانية صنع مستقبل مرغوب، وتحديد العمل

استراتيجية وبرنامجا لتحقيقه حسب شروطه، باستبصار مختلف العوامل الفاعلة في الماضي القريب والحاضر اللهيب، سواء منها المانعة من بزوغه، أو المشجعة على تجليه.

3. ويسقط في نفس الخطأ الذين ينطلقون من السؤال : «**ماذا سيقع في سنة 2000 أو ما بعدها من السنوات ؟**». فهؤلاء ليسوا مع المنهج المستقبلي الإبستيمولوجي في شيء. لأن الهدف الأساس من المستقبلية ليس كتابة تاريخ وقائع الأزمنة القادمة – مهما تعددت الوسائل العلمية لتكهنها – ولكنه النظر في إمكانية صنع مستقبل مرغوب، وتحديد العمل استراتيجية وبرنامجا لتحقيقه حسب شروطه، باستبصار مختلف العوامل الفاعلة في الماضي القريب و اضر اللهيب، سواء منها المانعة من بزوغه، أو المشجعة على تجليه.

4. وبأسلوب أكثر وضوحا، نؤكد أن المستقبلية من منظور إسلامي علمي هي تلك التي تعنى بدراسة بدائل المستقبل لحل المشال التي تتخبط فيها الجموع الإسلامية، وشن حرب ضروس على الجهل الذي ينخر جسمها، ومقاومة الفوضى السائدة ببعض صفوفها. وهي بذلك لاتنشغل بصور زهوق الباطل، ولكن تنظر للمستقبل على أساس أنه مجال حرية وإرادة وقرار لتحقيق دمغ الحق للباطل فإذا هو زاهق. فالقائد حين يخوض حربا يكون هدفه النصر والتمكين لجيوشه من الفوز على الخصم. ولا نعلم قائدا عاقلا يخوض الحرب لينظر بأي الطرق سيتجرع الهزيمة، أو ليلاحظ بأي ستباد جيوشه وتزال شوكته.

5. إن المستقبلية تنطلق من جمع مختلف الأسئلة الحرجة حول وضع يراد دراسته ببدائل مستقبلية، فتحسن صياغتها بشكل تسلسلي مترابط يسمح بإبراز العناصر الفاعلة وترابطها. وفي غياب جو من الحرية يسمح بتقديم البدائل ومناقشة صلاحيتها، تتحول المستقبلية إلى نوع من الأسلوب القسري «الدكتاتوري»، الذي يفرض رؤيا واحدة، يبرر أصحاب القرار علميتها ومنطقيتها من خلال إرغام الباحثين على السير على خطاها بما لهم من قوة نفوذ عليهم، فتضيع بذلك أزمنة كان يلزم أن تصرف للانتقال بالمجتمع نحو الأمثل، وتباد طاقات ليتها سخرت للنهوض بالمجتمع نحو الغد المشرق.

ولنا في النظم الاشتراكية والليبرالية والديكتاتورية على السواء في عالمنا العربي البئيس، والتي سادت في ماضينا القريب، أو التي تسود في أقطار شتى من عالمنا المهتز، خير المثل للدلالة على ما نقول. والنتيجة من ذلك تحول المستقبلية من فن يسمح بنهج سبل المستقبل المرغوب فيه عبر مشاركة الفاعلين من أفراد المجتمع، إلى تقنوقراطية لتمرير خيار القادة، وتبرير نهجهم بمختلف الوسائل العلمية والتقنية والمنطقية المتاحة، انطلاقا من إسقاطات رياضية متعددة، وتفاسير منمقة ومضخمة للظواهر الاجتماعية.

6. تسمح المستقبلية بتغذية الوعي الجماعي بفكر مضاد للفكر الراكد الرافض للتغيير ولهذا كانت طاقة مولدة لفكر منتج حينما تنبثق عن إسهامات جماعية لأفراد المجتمع، على عكس الصورة التي ذكرناها آنفا حين تنقلب أداة في أيدي الطغاة والدكتاتوريين لتبرير سياستهم، وإيجاد السند العلمي لتوجهاتهم.

ونحن نهدف من خلال إعمال فنون علوم المستقبل داخل مجتمعاتنا إلى دفع المسلمين قدما نحو الوعي الجماعي بإمكانية وضرورة إظهار الوجه الحضاري المشرق للإسلام، وتحقيق شروط إنزاله على أرض الواقع علما وثقافة وصناعة معرفية وحضارية. فإيمان المسلمين بمستقبل تتحقق فيه أمانيهم مؤازرة وتكافلا مع باقي فئات المجتمع الأخرى، بل تمثلهم لذلك المستقبل، وعيشهم ذهنيا وسط فضاءات تخيله، يجعلهم أكثر استعدادا لسلوك حصوله. ومن ثم كان الإيمان سابقا على العمل وأصلا له.

7. على ضوء ذلك، لاتكون المستقبلية ذات جدوى من وجهة نظرنا إلا إذا كانت منبثقة من الإيمان بأن الله ممكن للمسلمين دينهم الذي ارتضى لهم، وأن مستقبلهم بيدهم فلينظروا لشروطه، وأن الغد غدهم فليعملوا على تحقيق سبل تحصيله.

ومن ثم فهي أداة لتوسيع دائرة البحث والنقاش حول تلك السبل وصورها المحتملة الممكنة من تحقيق الشروط المطلوبة، والنظر بالعين البصيرة والدقيقة لمختلف الموانع والعوائق التي تحول دون ذلك، وطرق التغلب عليها ومواجهة المترتبعنها من العوارض والصعوبات، وما تمليه من تكثيف الجهد وحشد القوة لاقتحام العقبات.

8. في إطار ذلك تفهم «**سورة العصر**» في القرآن الكريم، لأن الإيمان العمل ضروريان للانطلاق وخوض غمار التغيير نحو المنشود، وضامنان لترجيح كفة تداول الأيام جهة الغد المشرق للإسلام. والتواصي بالحق والتواصي بالصبر دعامتان لتحقيق الفوز حين مواجهة الموانع والعوائق، لازمتان لكسب النصر حين مدافعة الصعوبات وتحمل الشدائد حتى يحصل ذلك الغد المنشود، فيتشكل في هيأته المثلى على يد جيل من الأجيال القادمة، ثم الاستمرار على نفس النهج إيمانا وعملا جهادا وصبرا وتعاقبا من طرف الأجيال التالية، إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

فانقطاع التواصي بين الأجيال قاتل لكل مشروع في عز تطوره، وما حق لكل مكتسب قبل نفاد عطائه، ومولد لأجيال يصفها الله عز وجل بقوله : ﴿**فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا**﴾(12) فانقطاع التواصي بالحق والتواصي بالصبر منسف للإيمان، مجهض للعمل، مولد للخلف الضائع والمضيع. يفقد عقل الأمة استمرارية التوقد لبسط نفوذها على المستقبل، ويدفع عديدا من أفراد المجتمع للاستغراق في شهوات الحاضر، واللهو عن استيفاء شروط الغد القادم، وما مثال فلسطين عنا ببعيد.

9. **المستقبلية في منهجها السليم تقتضي نظرتين متكاملتين : نظرة إلى الأفق البعيد، ونظرة إلى الحاضر من بعيد.** نظرة إلى الأفق البعيد لتكهن مآلات القرارات المتخذة الآن، ليس بقصد استغراق الذهن في التحديد الدقيق لتفاصيل مضمونها، ولا الاستمتاع ببراعة تخيل أشكالها، ولكن بهدف معرفة مجال المراجعة حاضرا، وفسحة إمكانية المبادرة حالا، لتغيير المسار نحو الأفضل، وتوجيه الواقع نحو الأمثل.

وتلك نظرة تقتضي بدورها كشف الجينات المولدة للاتجاهات الثقيلة التي تجر الأحداث بجاذبيتها، وتشد الواقع والوقائع تحت مفعولها، وهو أمر صعب دون نظرة أخرى من بعيد للواقع المدروس، نظرة تنطلق من زمن موغل في التاريخ بشكل كاف لاستيعاب المسار التاريخي للأحداث وفقه أشكال تطوره، ومعرفة غلبة الصورة منه التي تحققت على صور أخرى لم يكتب لها أن ترى النور، وإن كانت لها حظوظ افتراض الوقوع. والتحليل الإبستيمولوجي الناقد بين النظرتين، من شرفة الماضي الذي انطلقت منه النظرة الأولى، إلى أفق المستقبل الذي بلغته النظرة الثانية، هو الزبدة المرتجاة من البحث والتحليل، وهو المانع من أن يرجع بصر الباحث المستقبلي خاسئا وهو حسير، وما أمره على الدارس المستغرق الجهد بيسير.

10. فنحن لا نسير على خطى الذين يدعون أن دراسة الماضي وحدها تحدد المستقبل، فهؤلاء يرون في تطور الأحداث أمرا سكونيا، ومعرفة أثر القادم لاتحتاج لديهم إلا إلى إسقاط تطورات الماضي على المستقبل، فتلوح لهم بذلك حسب ما يتخيلون أجزاء هامة من صوره، ولكننا نؤمن وننطلق من أن **المستقبل هو الذي يصنع الحاضر**، ليس لأن فقهاء المستقبلية يقولون بذلك ويعتبرونه أصلا لعملهم، ولكن لكون الإسلام كان سباقا في إرساء هذا المنهج والدعوة إليه، إذ المستقبل الأخروي المرغوب عند الفرد المؤمن هو الذي يحدد عمله الحاضر.

فمن كان يريد حرث الدنيا فقط، يؤتيه الله منها ما يشاء، وهو من وجهة الإسلام لا مستقبل له إلا النار.

12) سورة مريم، الآية 59.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن أراد الدار الآخرة وسعى لها سعيها في الحاضر، فإن له المستقبل الزاهر بإذن الله. وتلك أقوى الدلالات على قولنا إن المستقبل صانع الحاضر، وأن الإيمان بالصورة المرغوبة والممكنة منه محفز على العمل الآن، دافع للإقدام على استيفاء شروطه في الحال.

فالمستقبلية من منظور علمي، لاتنطلق كما يتبادر للذهن من السؤال : **ماذا سيقع من الحوادث في المستقبل ؟** فذلك نوع من الكهانة لا يمارسه إلا مدع معرفته بالغيب. ولكن تنطلق أساسا من السؤال : **كيف يقع في المستقبل القريب ما أريد بإذن من الله وتأييد منه ؟ وما العقبات في وجهه ؟ وما العوامل المساعدة على حصوله ؟ وما عساني أفعله لو تعطلت خطاي، رسبقني المنافسون لصناعة المستقبل على شاكلتهم، بحيث تكون سنة تداول الأيام لصالحهم ؟**

تلك هي المستقبلية من وجهة نظر علمية، ومن منطلق إسلامي رصين. ولئن سئلنا بعدها عن ماذا سيحدث سنة 2000 ؟ سنجيب بكامل الابتسام : سيكون – رغم أننا لغزو ثقافي مكثف نسينا أو أنسينا مرجعية التأريخ بالهجري – أولها رمضان، وآخرها رمضان. وهو خير نهاية لقرن مليء بالانكسار والانهزام، معلن عن صحوة إسلامية مباركة تتنامى رغم اشتداد أنواع القهر والفتك، وقلة العدة والعدد، وغياب النصير، وضعف الظهير.

إنها سنة عادية من حيث الزمن، خاتمة لقرن متلاطم الأمواج، كثير المتغيرات، شديد الزلزال، كثيف التقلبات. إن كان لها ما يميزها عن غيرها من شيء هام، ونعلمه علم اليقين على وجه التمام، فهو أن انقضاءها يفسح المجال لمطلع شمس ألفية ميلادية ثالثة، وقرن جديد، وعام وليد. يبدأ الثلاثة والعالم الإسلامي يبتهج بأفراح عيد الفطر. فلا عجب أن يفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله، أيا كانت حالتهم التي لانخالها تخرج عن واقع مرير، لضعف في العمل وغياب في التنظير. لكنه فاتحة لعهد فريد، وموسم جديد يبدأ والأمة تعيش أيام الفرح بعيد الفطر السعيد. فأنعم به موسما لثقافة الإسلام، وطالع خير للألفية والقرن والعام.

الرباط ـ محمد بريش

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

توطينُ الأسلمة
في أوساطٍ مُعلمَنة

الفصل الثاني

الثقافة أداة الفعل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

توطيد الأسلمة في أوساط معلمنة:

الثقافة أداة الفعل

للأستاذ محمد برّيش
مهندس خبير في الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية
مدير مجلة دعوة الحق - الرباط

● **الثقافة بمقاصدها:**

مصطلح «**الثقافة**» مصطلح مستحدث معاصر، أراد باستعماله الذين تبنوه من مفكري العرب زمن النهضة الأدبية في مطلع القرن الميلادي الحالي التعبير عن ما يحتويه مصطلح "Culture" في اللغات اللاتينية المعاصرة من مضمون ودلالة.

ولم يعد هذا الاستعمال مشاعا إلا بعد بزوغ مؤسسات عربية تعنى بالتربية والثقافة والسياسة الوحدوية، وميلاد عدد من المجامع اللغوية في بعض الأقطار العربية، التي بفضل وجودها ودراساتها تمتع المصطلح لشهرته على الألسن بنوع من التأصيل، وبحث له عن جذور في الثرات الأدبي واللغوي العربي، اكتسب بها شرعية الانتماء لخزان مصطلحات اللغة، دون أن يسلم بين الحين والآخر من المساءلة عن ظروف الولادة، ومضمون الدلالة.

ومصطلح «**الثقافة**» من المصطلحات التي كتب حولها الكثير، وقيل عن دلالتها ومضمونها الكثير، بلغ درجة من الحجم غدا معوقا بتراكماته الضخمة، يرمي بظلال من الغموض على المفهوم من كثرة التعريفات والشروح التي خضع لها المصطلح، إذ نجد تباينا بينا بين هذا المفسر وذاك، انطلاقا من القناعات الفلسفية والمنطلقات الإيديولوجية لكل متناول بالشرح أو التحليل لدلالات المصطلح.

ولقد حاول كاتب هذا البحث مع المجموعة التي كان عضوا فيها ومنسقا لأعمالها من الخبراء المرموقين المكلفين بصياغة «**استراتيجية الثقافة الإسلامية**»(1) أن يحدد مفهوما للثقافة سليم الدلالة، واضح العبارة، إسلامي الإشارة، أدرج ضمن تعاريف المفاهيم التي احتواها الفصل الأول تلك الاستراتيجية القيمة، مضمونه أن الثقافة في مفهومها الذي ينسجم مع المنهج الإسلامي، هي ذلك التعبير عن مدى التقدم والرقي في مختلف جوانب الحياة البشرية ومجالاتها المختلفة، وإبراز ما يبدعه الإنسان من خلال تفاعلاته مع الكون الذي سخره الله له لخدمة عقيدته وقيمه الإنسانية، وإبراز خصائصه الكامنة فيه من فكر وسلوك يتواكب مع الواقع الذي يعيشه الفرد

1) طبعت استراتيجية الثقافة الإسلامية من طرف المنظمة الإسلامية للعلوم والتربية والثقافة (الإيسيسكو)، إلا أن الإدارة المشرفة على ذلك غفلت على خلاف مثيلاتها من المؤسسات والهيئات الدولية والقارية، عن الإشارة إلى مراحل إنجاز تلك الاستراتيجية، ومحطات إعدادها والجهد المبذول لصياغتها وقائمة الخبراء الدوليين المرموقين الذين حرروها، تحريرا ونقدا ومراجعة، وتبويبا آملين أن يتدارك ذلك في الطبعات القادمة للكتاب بإذن الله سبحانه.

والمجتمع، وفق معايير ومضامين إسلامية، تنبع من العقيدة الإسلامية الخالصة، وتنهل من معين الكتاب والسنة، وتتوافق مع ما تضمنته الشريعة السمحاء من نظم إسلامية، وتساير ما أجمعت عليه المذاهب الفقهية، والسلف الصالح، والعلماء المعاصرون المشهود لهم برسوخ العلم وحسن الاستقامة، من مبادئ هامة للفكر الإسلامي في جوانبه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

● **الثقافة حضارة :**

وكنت أوضحت في دراسة أخرى يمكن أن يرجع إليها أن **الثقافة الإسلامية هي الإسلام حين يصبح حضارة**، لأن هذين المصطلحين : **الثقافة والحضارة**،(2) لصيقان مترابطان متفاعلان فيما بينهما في لغتنا المعاصرة، حتى ليكاد البعض أن يخلط بينهما خلطا كبيراً، ناتجاً عن استعمال ذات المصطلحين لترجمة لفظة "Culture" اللاتينية في مطلع هذا القرن من طرف بعض الأدباء العرب، وخاصة منهم من استهواهم الفكر الغربي ليتخذوه دون تردد نمط حياة وسلوك عمل ومنهج تفكير، إذ كان معظمهم على تماثل أو تقارب من حيث الأصول العقدية لذلك النمط والسلوك والمنهج، فلم يجدوا عن قدوة الغرب بديلاً.

والمصطلحان يغذي كل منهما الآخر، فلا حضارة بدون ثقافة، ولا ثقافة بدون عطاء حضاري. ذلك أن **الثقافة** تعبير عن سلوك معرفي، وصناعة، وابتكار، وعطاء، وإبداع، وفن، ومنهج تفكير. هي تأمل، ونظر، وتدبر، وتبصر، وتعلم، وحدق، وتهذيب للعقل، وحفاظ على الذاكرة من النسيان والتآكل. هي تقوية للفطنة، وصقل للموهبة، وحث على الاجتهاد. هي خطاب يصدع به العمل الصالح الممارس على أجمل صورة، والقول المنطوق بأسلس العبارة. هي ذوق جمالي، وصناعة حضارية، ونمط حياة، وتهذيب للسلوك والأخلاق. هي إفرازات ذكية نابعة من قوة الذاكرة، وتفجير لطاقات ما اكتسب من المعرفة، وصدى لاستيعاب العلوم والمعارف من طرف الذات الإنسانية، وفلسفة للمجتمع في تعامله مع الكون والخلائق والحياة. هي دفاع عن الذات والهوية، واقتحام للعقبات بغية تحقيق أهداف نبيلة مسخرة للكون، حافظة للجنس البشري، ومحافظة على التوازن البيئي.

والقراءة المتأنية لمختلف التعاريف التي تناولت تحديد مفهوم مصطلح «**الثقافة**» توحي بأن معظمها انطلق غالبا من الغايات والمنطلقات التي تقصد من استعمال المصطلح. فتارة يكون القصد منه الحفاظ على الذاكرة، وتارة التعلم وتنمية المعارف، وأخرى صناعة مشروع حضاري، أو تعبير عن الهوية، أو مساهمة إبداعية في صناعة الحياة، وغير ذلك من المقاصد والغايات التي لا عد لها ولا حصر إلا بمشقة وجهد.

● **الثقافة الإسلامية هي الإسلام حياة :**

وحينما يضاف لهذا المصطلح وصف «**الإسلامي**» يقصد ذات الغايات المنطلقة من أسس إسلامية، والرامية للقيام بأعباء حمل الرسالة، المرتكزة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهي بذلك تملي سلوكا حياتيا، وتصرفا معرفيا، وتبني قواعد إيمانية، وترسي سلما عقائديا لا يحيد المرء عنه في كافة نشاطاته وعطاءاته.

فالثقافة الإسلامية **هي الإسلام حين يجسد عملا إنسانياً في شتى دروب الحياة** من خلال تعامل الأفراد وتدافعهم على ساحة واقع المجتمع. **هي الوحي حين يفجر في المؤمن عطاءات هادفة بانية في مختلف الاتجاهات الفكرية والإبداعية والتعليمية والفنية**، فيبقى الإنسان داخل إنسانيته الحقة دائم العطاء والخدمة لنفسه ومجتمعه وبيئته ومحيطه، يبذل من ماله وجهده لجلب المصالح ودرء المفاسد، فينسلخ من تلك الجاذبية التي تجذبه إلى الأرض

2) محمد بريش، «نحو استشراق متين للثقافة الإسلامية»، بحث مقدم لمنظمة « الإيسيسكو»، 1410/ 1990.

إهداء من شبكة الألوكة

ليخلد لهواه، يعاكسها ويجابهها ويقتحم عقباتها بقوة الإيمان بأن يرقى إلى مراتب أعلى هي مراتب الإنسان القويم، تلك المراتب التي صاغ الله عليها الإنسان الأول حين خلقه في أحسن تقويم، قبل أن يرده - إلا الذين آمنوا - إلى أسفل سافلين، كما هو مفصل في الذكر الحكيم في سورة «التين».

كل عطاءات المومن في ذلك المسار، وكل نشاطاته نحو ذلك الصعود، وكل تألقه نحو ذلك الرقي المنشود، يعتبر عطاء ثقافياً إسلامياً، ويجسد على ساحة الواقع ثقافة إسلامية.

ويمكن أن نقول نفس القول عن سور أخرى تصف التردي الإنساني بعيدا عن الإيمان مثل الذي قلناه بخصوص سورة «التين». فالمومن حين يتجنب مسار الخسران المنصوص عليه في سورة «العصر» مثلا، فهو في إيمانه، وفي عمله الصالح، وفي تواصيه بالحق، وتواصيه بالصبر، صاحب نشاط على هذه الأصعدة الأربعة، يحقق في تجليات ذلك النشاط ومنجزاته وحركاته ثقافة إسلامية، ويجسد في مساره على قدر البعد من الخسران عطاءا ثقافياً إسلامياً.

وحين يأمر المومن المسلم بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويسعى لتلك الأخيرية التي نص عليها الحق سبحانه وتعالى في قوله : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله**﴾، يكون حينذاك منتجاً - من خلال سلوكه الذي يتبناه، والانطباعات التي يوحي بها، والأعراف التي يقيمها، والإبداعات التي يقدمها - ثقافة إسلامية.

● **الثقافة فعل ديناميكي :**

والثقافة اليوم في خضم التدافع الحضاري الحامي الوطيس، والصراع الثقافي الملتهب، يلزم أن ينظر إليها في مفهومها الديناميكي. فهي ليست شيئا سكونيا، كما أنها ليست شيئا نظريا، بل هي شيء ملموس متحرك. فثقف بالشيء ظفر به، من قوله تعالى : ﴿**فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم**﴾ وثقف الرجل ثقافة أي أصبح حادقاً خفيفاً، وهذا يحتاج إلى أن ينظر إلى المفهوم في إطاره الديناميكي لكونه شيئا يريد المثقف أن يظفر به، وأمرا يريد أن يكون فيه حادقا خفيفاً، أو شيئا يريد أن تصادفه، لأن ثقف تعني كذلك صادف، يقول الله عز وجل : ﴿**واقتلوهم حيث ثقفتموهم**﴾، والثقاف العمل بالسيف، أي إعمال شيء حاسم في الأمر له ذلك الفعل القاطع، ففي هذا الإطار المتحرك والمتفاعل ينبغي أن ننظر إلى مفهوم الثقافة الإسلامية.

ولهذا كانت عمليات الحدق والفطنة، وعمليات الظفر بالشيء، ومصادفته وتسويته وتهذيبه، كلها مرادفات لمفهوم «**الثقافة**» بمعناه الشمولي، تدل جميعها على الدلالة الديناميكية التي ينبغي أن نستحضرها دائما ونحن نتلفظ بهذا اللفظ المسمى «**ثقافة**»، من حذق وفطنة وظفر بالشيء ومصادفة له وتسوية وتهذيب للأخلاق، فهي حدق بالمضمون، وفطنة بالمكنون، وظفر بشيء عزيز، ومصادفة لمجهول، واكتشاف لمفقود، وتسوية وتهذيب لشيء موجود، وسلوك يسلكه الإنسان، فكل ذلك يدخل ضمن المفهوم الديناميكي الذي يتناوله هذا المصطلح المتطور المفهوم، والذي لا يكاد يستقر على مفهوم قار.

ونحن إذ نعالج الثقافة كأداة فعل، في مستقبل هو مجال الفعل، بمحرك التغيير الذي هو مسار الفعل، في أمس الحاجة إلى أن نعتبر الثقافة بمفهومها الواسع كفلسفة مجتمع، وسلوك فرد، وعطاء أمة، فتكون الثقافة الإسلامية هي إشعاع الرسالة الإسلامية، لأن ما يميزها عن غيرها من الثقافات، هو مضمون رسالة الإسلام، فالمسلم حامل لرسالة، ومتميز بسلوك، وخاضع لمرجعية، فإنزال تلك المرجعية على أرض الواقع يشكل بالنسبة له دستوراً للأخلاق، ومنهاجاً للتعامل والتفكير، ونبراساً للصناعة والتحضير، وصراطاً للسلوك القويم، ومنهجاً للتعامل مع الذات والآخر والمحيط، فبذلك تكون تلك الثقافة وتلك التعابير التي تفجرها ثقافة وتعابير إسلامية.

ولقد وجدنا عددا من البحوث تصف الثقافة على أنها ألوان من العرف والعادات والتقاليد والتراكمات المعرفية لشعب من الشعوب تنقل من جيل لآخر ما بين إضافة ونقصان، لكننا نراه تعريفا ناقصا، لأنه حين تخلو الثقافة من مصادرها الأساسية، ويصبح مصدرها العرف فقط

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تخضع لمختلف التقلبات، وتخضع للتمزيق والتشوهات والتمزقات، لأنها تتطور، فالثقافة ليست شيئا قارا لكونها لصيقة بالإنسان وحياته، كما أن الثقافة الإسلامية ليست هي الإسلام، وإنما هي تعبير إنساني عن انغماس الإسلام في الذات، الإنسانية، فبقدر ما ينغرس الإسلام في الذات بقدر ما يصدر عن الذات نشاط له طابع إسلامي، ويكون له ذلك النفع الذي حتما يعود على المسلم والإنسانية بالخير، ويعزز الوجود الإسلامي، ويحمي الذات، ويصون تعامل الآخر بالمعروف.

● **الثقافة علم :**

والثقافة اليوم في عالمنا الإسلامي تحتاج إلى تعريف معاصر يبرز حركيتها وسعة مفهومها، فالعلم أضحى جزءا من الثقافة، وهذه حقيقة تأخرت أوروبا في فهمها حتى زاحمها اليابان، ونافسها السياسة الاقتصادية والإنتاج الصناعي والابتكار التكنولوجيء وهي اليوم تخشى زعامته السياسية والعسكرية أكثر من أي وقت مضى. أما العالم المتخلف، والأمة الإسلامية الجزء الهام من رقعته، والطرف الكبير من منظومته - وليس من عافية أن يكبر الورم - فهي بعيدة تمام البعد عن الوعي باحتواء الثقافة للعلم، حتى في أدق بحوثه التقنية والتكنولوجية، ومازالت العديد من سواعد وأموال وعقول العالم الإسلامي تخدم الثقافة الغربية والمنظومة الفكرية الغربية المغدية لها، وهي غير واعية بذلك، بل نرى أسلمها طريقة يدعي أنه لا يستقيم علما أن نقول أن المبتكرات التكنولوجية، والكشوفات العلمية هي جزء من الثقافة، وإن كان لا ينكر أن لها أثرا على الثقافة والفكر. بل يصعب عليه لضعف الوعي بدوافع الابتكار، ومنطلقات الإبداع التسليم بذلك. إلا أنه يرغم على القبول حين تأتي الفكرة حول ذلك على لسان المبدعين والمبتكرين الغربيين. ولا عجب أن نجده غدا مدافعا عنها، دون سابق اقتناع بها، بمجرد أن نطق بها المبجلون.

فالثقافة علم، والعلم جزء من الثقافة، لأن الثقافة أخلاق وعطاء وحضارة وصناعة، وتراث وتاريخ وبحث ودراسة وإبداع واستغلال لكل فنون العلم وأدوات، ولهذا فهي لصيقة بأصولها، وأصول الثقافة الإسلامية هي أصول الإسلام، لأن المرجعية في حياة المسلم ونشاطه هي للإسلام، ولشريعة الإسلام، ومقاصدها هي ذات مقاصد الإسلام، وما ينجز المسلم ونشاطه هي فعل أوعمل المؤمن في ساحة الواقع، فيكون إبداعاً وجمالاً أوشعراً أو نثراً، سواء من حيث السلوك والمعاملة، أو من حيث الإبداع اليدوي أو من حيث الإنتاج الفكري أو العلمي، فكل ذلك يعتبر ثقافة إسلامية.

● **الثقافة لصيقة بالعقيدة :**

والثقافة إما أن تكون لصيقة بعقيدة أو لصيقة بتاريخ يحتل مكان العقيدة أو لصيقة بأسطورة تقوم مقام العقيدة، أو إيديولوجية في مرتبة العقيدة، فعديد من الشعوب نجد ثقافتها تعتمد على ركام من الأساطير يشكل بالنسبة لها عقيدة وتاريخا، تحس فيه بنوع من الجمال الفني والإبداعي، لكن بفعل تكبيله للذاكرة ومسخه للفكر لا يستسيغه المؤمن، فقد تجد مثلا عند الهندوس، وغيرهم من شعوب الشرق الأقصى من مجتمعات البودية، نوعاً من الجمال الفني، والتعبير الثقافي في معابدهم حول صنم البودا وغيره، وقد تجد في رقصاتهم وأشكال تعابيرهم نوعاً من التعبير الثقافي الفني، لكن حين نأخذ الإنسان بمحيطه، وعطائه، ومدى وعيه الفكري، وعمقه الروحي، تجد الإنسان غير التوحيدي في تعبيره الثقافي وإبداعه يخدم المادة بدل أن تخدمه المادة، ونجد شبكة من الأساطير تهيمن على التعبير وتكبل ذلك الإبداع بحيث تحصره في أشكال قرابين هي بمثابة إبداعات بشرية لصالح مجسدات مادية بدل أن يكون العكس.

● **الثقافة لصيقة باللغة :**

ومادامت الثقافة تعبيراً فهي لصيقة باللغة، ولهذا كانت الشعوب الإسلامية حريصة على حماية لغتها وخزانة مصطلحاتها على قدر ما تكون شديدة التمسك بعقيدتها، نشطة في أداء رسالتها، فهي تعرف أن الثقافة نهر دافق يجري بحركة دائبة صوب أهداف منشودة، وهو عذب

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

زلال بقدر ما يتمسك بالمبادئ السامية والأخلاق النبيلة والمنطلقات الأصيلة، يحتاج للنهل والاغتراف منه إلى أوعية لغوية وأدوات معرفية إذا لم تصقل ولم يعتنى بها عناية شاملة تدخل ضمن مشروع ثقافي، فإنه لا مجال لكي تكون تلك التعابير الثقافية، وذلك النهر زلالا صالحا لإطعام ما يراد غوثه وسقيه من تلك المياه العذبة. فبغياب حماية الأوعية والأدوات المعرفية، وحماية التربة التي تجري فوقها تلك المياه، فإنها تنقلب من ماء عذب زلال إلى ماء ملح أجاج بما اختلط به من نبات الأرض وملح التراب.

● **الثقافة فقه :**

والثقافة فقه بمعناه الواسع، فقه بالدين، وفقه باللغة، وفقه بالواقع، وفقه بالأصول، وفقه بالأهداف، وفقه بالجمال، وفقه بمراتب الكمال الإنساني، وفقه بالمتغيرات، وفقه بالشدائد والمحن، وفقه بعطاءات المخلوقات الأخرى وببديع الصنعة الإلهية فيها، وهذا كله لا يتحقق إلا بالمهارة في الفنون، واكتساب العلوم، والغوص في دروب الصناعة المعرفية، والكشوفات والبحوث الميدانية، وتفجير عطاءات الذاكرة، وبنات الأفكار، لاكتشاف المجهول، ولإعمال ما استوعب من كتاب الوحي، وما فهم وفقه من كتاب الكون، لخدمة الصالح العام جلبا للمصالح ودرءا للمفاسد، مصالح نفع للإنسان وللبيئة والمحيط والخلائق التي سخرت للإنسان، ومفاسد تضر بالإنسان والبيئة والحياة، تمسخ التاريخ أو تقضي على بقاء الإنسان.

● **اعتراضات على المصطلح :**

وكما أشرنا في بداية البحث، فإن مصطلح الثقافة مأخوذ أساسا من العلوم الغربية، أراد الكتاب العرب بإدخاله إلى اللغة العربية الإشارة إلى ما يراد من دلالة لمصطلح "Culture" في اللغات اللاتينية.

ورغم أنه قد استقر في خزان مصطلحات اللغة العربية، فإنه لا يخلو من معارضة له ولمفاهيمه، نذكر منهما نموذجين :

* **النموذج الأول : اعتراض مالك بن نبي.**

يقول مالك بن نبي «كأنما يبتغون بهذا أن يقولوا إن كلمة ثقافة لا تكتب إلا بهذا الوضع، وهؤلاء المؤلفون يعلمون دون ريب ما يفعلون حين يقرنون الكلمة العربية بنظيرتها الأجنبية، فإن معنى هذا أنهم يدركون أن الكلمة لم تكتسب بعد في العربية قوة التحديد، التي ينبغي أن تتوافر لكل علم على مفهوم، فالكلمة جديدة أي أنها وجدت بطريقة التوليد، والغريب أن الكاتب الذي صاغها وربما كان ذلك في مستهل هذا القرن، قد اختارها من بين عدد من الأصول اللغوية من مثل علم، أدب، فهم علم أدب فهم أدرك ثقف تلك الكلمات التي تدل على العمل أو العلاقة المعرفية ومعنى هذا أنه امتار الكلمة التي تدل صورتها على طابع الروح الجاهلية.

لكن نجد مالك بن نبي يقول بعد ذلك «ولا شك أن الذي اشتق كلمة ثقافة كان صناعا ماهراً في علم العربية حريصاً على تجويد اللفظ وصفائه على ما عليه عديد من كتاب الأدب في هذه الأيام». ولكن يبدو لنا أن كلمة ثقافة التي كان من حظها أن تختار لهذا المعنى لم تكتسب قوة التحديث الضرورية لتصبح علما على مفهوم معين، وهذا ما يفسر لنا أنها بحاجة دائمة إلى كلمة أجنبية تقرن بها لتحديد ما يراد منها في الكتب التي تتصدى لهذا الموضوع أو بعبارة أخرى أنها كلمة لا تزال في اللغة العربية تحتاج إلى عكاز أجنبي مثل كلمة "Culture" لتنتشر، أظن أن هذا الأمر قد مضى لم يعد يعني لفظ الثقافة يحتاج إلى كلمة "Culture" كي ينتشر فقد انتشر بالفعل وساد بعد الحقبة التي كتب فيها مالك بن نبي كتابه. فما كتبه مالك بن نبي في أواخر الخمسينات وفي مطلع الستينات والمدون في كتاب «**مشكلة الثقافة**» من الحديث حول مفهوم الثقافة والذي ذكرنا بعضه يدل على أنه في بداية الستينات لم يكن لفظ الثقافة منتشراً بشكل كبير دون أن يكون مقروناً بما يدل عليه من دلالة في اللغات اللاتينية التي نقل منها، وإن كانت مصر قد شهدت عدداً من الكتب التي تناولت مفهوم الثقافة الإسلامية ومفهوم الثقافة عند عديد من الكتاب والباحثين.

فاليوم نجد أن لفظ ثقافة قد دخل بشكل كبير واستوعبته الأدبيات، وشحن بعديد من التفاسير والشروح حتى لقد أضحى فيه نوع من الغموض يحتاج إلى نوع من التحليل، فعديد من البحوث حول الثقافة أو لما تناولت تتناول دائما الحديث حول المفهوم ودلالته، وتحاول أن تجد له نوع من الرباط بين ثقف يثقف في اللغة العربية ومدلول الثقافة المعاصرة. وخاصة ما أعطي لها من مفاهيم في اللغات اللاتينية.

وبعد أن يخوض مالك بن نبي في دراسة لمفهوم الثقافة وما يعنيه في اللغات الغربية، وما ينبغي أن نتناوله من جوانب اجتماعية وتركيب نفسي من تراكيب جزئية وتركيب عام لمفهوم الثقافة، ينتهي ليعطي مدلولاً لمصطلح الثقافة وتعريفاف بصورة عملية يحدد مفهومه كالآتي :

الثقافة مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، ثم يضيف، فهي على هذا التعريف المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته، وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يحدد مفهومها، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، وهكذا نرى أن هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة، أي مقومات الإنسان ومقومات المجتمع مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المقومات جميعا في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات.

* النموذج الثاني : اعتراض د. المهدي بن عبود :

حضرت وسمعت مراراً من الدكتور المهدي بن عبود حفظه الله رفضه لكلمة ثقافة ليس رفضاً باتا، لكن كأنه يرفض استعمالاتها وخاصة الاستعمالات السلبية التي جعلتها تحتل مكان العلم وتأخذ ما لمصطلح العلم من دلالة، فهو يقول حفظه الله، أن مصطلح العلم هو المصطلح الذي ينبغي أن نأخذ به ونعمل به، فهو المصطلح القرآني، وهو المصطلح الذي ظلت تتعامل به الأمة، أما مصطلح الثقافة فمصطلح حديث صنع لنا مجموعة من المثقفين، وجعل عديداً من المثقفين يتناولون قضايا فقهية، لا ينبغي أن يتناولها إلا العلماء العارفون العالمون. وشيء من هذا نجده كذلك عند مالك بن نبي رحمه الله، حين قال لقد نتج عن عدم محاولتنا تصفية عادتنا وحياتنا بما يشوبها من عوامل الانحطاط أن ثقافة نهضتنا لم تنتج سوى حرفيين منبتين في أنحاء شعب أمي، ونحن مدينون بهذا النقص لرجل القلة الذي بثر فكر النهضة، فغلم يرى في مشكلتها سوى حاجته ومطامعه، دون أن يلمس فيها العنصر الرئيسي لما في نفسه فهو لم يرى في الثقافة إلا المظهر التافه، لأنها عنده طريقة ليصبح شخصية بارزة، وإن زاد فعلم يجلب رزقا. والحقيقة أننا منذ خمسين عاما نعرف مرضا يمكن علاجه هو الجهل والأمية، ولكننا اليوم أصبحنا نرى مرضا جديداً مستعصياً علاجه وهو التعالم، وإن شئت فقل الحرفية في التعلم والصعوبة كل الصعوبة في مداواته.

ونجد مالك بن نبي يعود لمفهوم الثقافة، فيقول من وجهة التاريخ، الثقافة بما تتمنه من فكرة دينية انتضمت الملحمة الإنسانية في جميع أدوارها من لدو الآدم لا يصوغ أن تعد علما يتعلمه الإنسان، بل هي محيط يحيط به وإطار يتحرك داخله، فهو يغذي جنين الحضارة في أحشائه، إنها الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحر، وهي الوسط الذي تتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه، بمن في ذلك الحداد والراعي والفنان والعالم والإمام، وهكذا يتركب التاريخ، فالثقافة هي تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من عادات متجانسة وعبقريات متقاربة وتقاليد متكاملة، وأذواق متناسبة وعبارات متشابهة وعبارة جامعة هي كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة ويحدد قطبيها من عقلية بن خلدون وروحانية الغزالي، أو عقلية ديكارت وروحانية جان دارك، هذا هو معنى الثقافة في التاريخ. هكذا يقول الأستاذ بن نبي رحمه الله.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ونحن حتى نجمع بين ما قاله أخونا وحبيبنا الدكتور المهدي بن عبود في رفضه لكلمة ثقافة ومفهومها الفضفاض، وما قاله الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، نجد فعلا أن العلم هو غير ثقافة، العلم كما قلت جزء من الثقافة، لكن ليس جزءا يعني أن الثقافة هي أكبر منه وأعظم منه، لا العلم حين يترل إلى مدرك الإنسان، ويمتلكه الإنسان ويدخل ذاكرته وتحتويه أوعيته الفكرية يتفجر نشاطا، ويصنع أفكاراً، لا يوحي بإرادات معرفية، بوعمل فكري وبإبداع فني هذا الذي يتفجر ويترل من نشاط إلى ساحة الواقع، وينجلي في المحيط حضارة وعطاءا وإبداعاً وفن، هذا هو عين الثقافة، فإذا هي ليست علما في حد ذاته يدرس ويكتسب، بل هي ما يصدر عن العلم المكتسب من تفجير طاقات وحسبنا هذا في التعريف بالثقافة.

لأن كما يعرف نفس الأستاذ مالك بن نبي، الثقافة هي الجسر الذي يعبره الناس إلى الرقي والتمدن، وهي أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعضهم الآخر من السقوط من أعلى الجسر إلى الهاوية، فهي وظيفتها مثل وظيفة الدم، يتركب من الكرويات الحمراء والبيضاء وكلاهما يسبح في سائل واحد، من البلازما ليعطي الجسد، والثقافة هي ذلك الدم في جسد المجتمع يغذي حضارته، ويحمل أفكار الصفوة، كما يحمل أفكار العامة، وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المناسبة.

وطبعا أن حين نقول أن العلم جزء من الثقافة نعرف أن ذلك سيرفضه أخونا الدكتور المهدي بن عبود رفضا باتا، لأنه كما سبق القول يرى أن الثقافة مصطلح دخيل أضر بمفهوم العلم، وأساء إلى لغتنا العربية من حيث أراد أن يخدمها، فهو بالنسبة له العلم شيء متقون، حينما يتعلق بعلوم الإيمان، بعلوم الوحي، فهي شيء مصون وشيء متقون، وحينما يتعلق بعلوم الفقه وعلوم المعرفة، فهي شيء موزون، أما بالنسبة للثقافة فهي خليط من العادات والتقاليد والأعراف والأساطير التي تفتقر إلى ما يمكن أن يدل على تماسك المضمون، ويثبت على أنها في حثيتها، وفي تركيباتها لها من العمق المعرفي ما يدل أنه متقون وموزون.

وطبعا نحن حين نقول أن العلم جزء من الثقافة لا نعني به العلم بمفهومه الواسع، بل نعني العلم جزء من الثقافة فيما يتعلق بالنشاط المعرفي الإنساني، أي أن العلم بحر واسع، وهو علم بما له من مضامين تدل على ذلك العلم، لكن حين يترل من خلال العقول البشرية فيتفجر نشاطا يصبح ثقافة، ولهذا يختلف هذا النشاط من هذا العارف إلى ذاك، ومن هذا الإنسان إلى ذاك، وبقدر ما يكون الإنسان من أولي النهى وأولي الألباب، بقدر ما تكون تلك الثقافة قريبة من ذلك المنهل الذي نهلت منه وهو العلم، لكن شكلها العلمي شكل ثقافي، ولهذا كان شكل العلم جزءا من الثقافة.

وهذا ما أردناه من قولنا أن العلم جزءا من الثقافة، ولم نرد بتاتا أن نقول أن العلم بمفهومه الواسع هو ثقافة أبدا، ولا نظن أن دكتورنا قد يخالفا في ذلك، وإن كان سيتحفظ تحفظاً كبيراً من استعمال لفظ ثقافة في الدلالة على العلم ولو في سورته الإنسانية، وفي تعبيره الإنساني.

● **حاجتنا إلى مفهوم معاصر للثقافة :**

ونعود في ختام هذا الجزء من البحث، لنذكر بأن ثقف يثقف فطن وحدق، وثقف العلم أسرع أخذه، والفطنة والحدق مع سرعة البديهة والفهم، ودقة الاستنباط والتحليل، كلها عوامل أساسية وضرورة لكل استراتيجية أي كان موضوعها، ولهذا من الأفيد كما سبق الذكر معالجة التعريف لمفهوم الثقافة في حركيته الديناميكية صاحبة التأثير والتأثر، والعطاء والاقتباس، والتعايش والصراع، بشكل لا ينفك لصيقا بركائزها الاستراتيجية التي إذا ما دب لها الشلل، انقلبت لحالة سكونية لا تسمن ولا تغني من جوع في مجال معالجة الواقع. بل على العكس، تعدو مضرة، وهي في سكونها لضخامة حجم التاريخ الذي خمد وراءها أضحت عقبة بعد أن كانت من أنشط أدوات الحركة، إذ بدلا من أن تصنع لنا رجال الصناعة المستقبلية،

أفرزت لنا بعد عنت الجهد هيامى تبجيل التراث والإشادة بالتاريخ.

ونحن ما زلنا أمام تطور الأوضاع وتصدع عرى ما كسبناه من خلال كفاحنا المتأخر والغير التام ضد القوات الاستعمارية الغازية نسينا أو أنسينا - لسذاجة مركبة عمت الأذهان - أن الحرب ضد وجودنا كأمة إسلامية ما زالت قائمة بمختلف الأسلحة، السياسية والفكرية والثقافية والتربوية والعقائدية. ومازلنا نفسر تخلفنا على نفس الشكل الذي ذكره مالك بن نبي منذ بداية الستينات، إذ يقول هذا المفكر في كتابه مشكلة الأفكار :

«وهذه الصعوبات قد فسرت بطريقتين مختلفتين : بالنسبة لأنصار الموضوعة الاستعمارية، فإن عامل التأخر على الإقلاع هو الإسلام، وبالنسبة لأنصار الموضوعة القومية فإن الاستعمار هو المسؤول عن ذلك، وفي كلا التفسيرين عيب أساسي لغموض في أساسه... الأولون يناسون الواقع التاريخي بتجاهلهم الدور الذي قام به الإسلام في إحدى أعظم الحضارات الإنسانية، والآخرون يجهلون أو يتجاهلون أن الدول الإسلامية الأكثر تخلفا هي بالتحديد الدول التي لم تواجه تحدي المستعمر».

وقد لا نتفق مع مالك بن نبي لأنه كتب ما كتب في وقته انطلاقا من تيارات وأوضاع زمانه، لكن النتيجة التي انتهى إليها من ذلك التحليل ما تزال صالحة قائمة تشهد على عدم العمل وتراكم المسؤولية من قبل بن نبي وبعده إلى اليوم. يقول هذا المفكر الفذ :

«والمجتمع الإسلامي يعاني في الوقت الحاضر بصورة خاصة من هذه الاتجاهات لأن نهضته لم يخطط لها، ولم يفكر بها بطريقة تأخذ باعتبارها عوامل التبديد والتعويق. فمثقفو المجتمع الإسلامي لم ينشئوا في ثقافتهم جهازا للتحليل والنقد إلا ما كان ذا اتجاه تمجيدي يهدف إلى إعلاء قيمة الإسلام. أما القادة السياسيون فإنهم لم يؤمنوا بضرورة إنشاء مثل هذا الجهاز ليراقبوا مسيرة العمل في بلادهم. هكذا أضحى عمله التاريخي أي العالم الإسلامي منذ قرن خارج مقاييس الفاعلية، وأضحى تنفيذه في ظل فوضى الأفكار».

ونحن لا نجد ما خطه مالك بن نبي، ولكن نأسف لأمة يوجه لها الخطاب منذ سنوات فلا تستجيب، ويحلل العيب فيها وأسبابه فلا تقدم على العمل. بل كثيرا ما نراها - تصادر حكومة وشعبا - كل منهما بأسلوبه - أصحاب النقد والنصيحة الحاملين هم الأمة، ناعتة إياهم بالمروق عن الشرعة والخروج على القانون. ونعلم أنه لا نفع للأسف والتأسي، ولكن ليعلم أننا لسنا أول من يخوض في ركام الأفكار يبحث في حركيتها وديناميكيتها، عسى أن يفهم عللها وبواعثها وشكل تطورها، رغبة في المشاركة المأجورة عند الله وعند الناس في التنقيب عن علاج أزماتها وتحديد زمنيته ومقاديره. ذلك أننا حين نجد مالك بن نبي يقول : «إن للعالم الثقافي بنية ديناميكية تتواقف مظاهرها المتتالية مع علاقات متغيرة بين العناصر الثلاثة للحكرية : الأشياء، والأشخاص، والأفكار». نصاب بالخيبة كوننا قضينا زمانا كان علينا فيه الوعي بديناميكية الأفكار الأشياء، وبقينا متخلفين حتى على مستوى التنظير لتحليل ديناميكية وضعنا التعيس، علما أن مالك بن نبي لم يكن أول ولا آخر من نادى بضرورة الاهتمام بحركية الأفكار وجدلية الثقافات.

الرباط - محمد بريش

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

توطيدُ الأسلمة في أوساطٍ مُعلمَنة

الفصل الثالث

التغيير مسار الفصل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

توطيد الأسلمة في أوساط معلمنة:

التغيير مسار الفعل

للأستاذ محمد بريش
مهندس خبير في الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية
مدير مجلة دعوة الحق بالرباط

التغيير من السنن القارة في الكون والحياة، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا. والمرء إما أن يملك زمام التغيير أو يخضع لسلطانه، وأن يملك الزمام تغيير إيجابي قوامه الفعل، وأن يخضع لسلطانه تغيير سلبي ناتج عن نكران للنعم وغياب للعمل الصالح.

وما نعنيه بالتغيير في بحثنا هو الوعي بالمتغيرات، والمتغيرات نتاج تقلبات الواقع عبر الزمن، فهي الصورة المشهودة من التموج الناتج عن المد والجزر على شاطئ ذلك الواقع، والوقع المحسوس من تلاطم الأمواج على ساحة ذلك الشاطئ وجنباته، والتي تتولد باستمرار وعلى الدوام بفعل عاملين أساسيين : تداول الليل والنهار بين الناس، خضوعا للسنة الربانية المنصوص عليها في الآية الكريمة : ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس...**﴾، وتدافع بعضهم ببعض، امتثالا لسنة ربانية أخرى خاضعة لآية كريمة نصها ﴿**ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾.

ولارتباط تلك المتغيرات بالزمن من جهة، وبالتغير الحاصل من تداول الزمن وتدافع الناس من جهة أخرى، رأينا أن نعكف أولا على الكلام عن الزمن وفعله بشكل نفهم منه العلاقة بينه وبين التغير والمتغيرات، علما أن ما نتناوله بالعرض لضيق بما بيناه في الفقرات السالفة من حيث الحديث عن المستقبل.

● **التغيير اختراق الحاضر للمستقبل** : وأقسام الزمن نسبية، تتحدد كلها من نقطة زمنية هي بوابة الواقع، فالحاضر محطة زمنية، وليس زمنا. ونقول أقساما لأن نسبة القرب أو البعد عن الحاضر هي التي تحدد في ذهن الإنسان أقسام الزمن، مثل قولنا التاريخ القديم، والغد البعيد، والأمس القريب، والغد القادم، وغير ذلك من أطراف الزمن المتقاربة أو المتباعدة قبلا أو دبرا عن بوابة الحاضر.

فالزمن يجري جسداً واحداً تحت قنطرة الواقع لا سبيل لإيقافه، ولا حيلة لتخزينه. بل كل ما في وسع الإنسان الواعي حسن الاستفادة مما يسمح به، وكمال الاستغلال لما يهبه من الفرص والإمكانات. ومن ثم فإننا إذا استثنينا ذلك التقسيم النسبي الذي أشرنا إليه فوقه، والذي نحتاجه «لأزمنة» حركة الزمن، تقريبا للذهن البشري لا تغييرا لفعل الزمن الحركي، كان الزمن منقسماً إلى قسمين أساسيين : زمن قابل، وزمن دابر، طرف مدبر وهو ما نسميه الماضي، وزمن قابل وهو الغد أو ما ندعوه في أزمتنا المعاصرة بالمستقبل.

فنحن أمام تصميم يقف فيه الإنسان على سكة الزمن الدائب الحركة في محطة الحاضر، مول وجهه قبالة القادم بحيث يكون الزمن في تحركه من جهته العليا مستقبلاً له، فهو المستقبل، ومن جهته السفلى ماض عنه فهو الماضي. أما الحاضر فليس إلا نقطة الفصل بينهما. فنحن الذين بفكرنا، ولما يحتاجه ذهننا من الوقت لاستيعاب حركة الزمن نمطط ذلك الحاضر

بشكل ذهني، فيتمدد إلى أن يضم إليه الأمس القريب والغد الوافد.

● **التغيير وعي ومشروع غد :** والناس في وجه صيرورة الزمن والإحساس بها صنفان، إما واع كليا أو جزئيا بحركة الزمن، أو غافل عنها تماما خارج التاريخ. فليس هناك واع بالتاريخ غافل عن المستقبل، ولا واع بالمستقبل غافل عن التاريخ. بل الزمن من منظور الإنسان الواعي كله تاريخ، المدبر منه تاريخ مسجل، والمقبل منه تاريخ مؤجل. الأول مصدر العبرة ومجال الخبرة ونسيج الذاكرة، والثاني ساحة الفعل وميدان التنافس ومجال الاستدراك.

وحقيقة الوجود هي للمقبل المتجدد كل لحظة، أما المدبر فلا وجود له بعد تجاوزه عتبة الحاضر، إذ لم تبق منه إلا صور بالذهن، ترك أثره وحمل ما سجل وأنجز فيه، ثم ولى ولم يعقب.

والناس سواسية أمام الزمن وإن تفاوتت أعمارهم. فحركته عامة عليهم جميعا وإن اختلف الشعور لديهم، فهذا يراها سريعة للذة من العيش يجتازها، وذاك يراها جد مبطئة لمحنة أو فتنة تنتابه.

المقبل من الزمن مجال تغيير ومراجعة، والمدبر مجال تذكير ومحاسبة. المقبل فسحة للتغيير والمدبر مجال للتذكير، وكلاهما زاد للعمل والنظر والتفكير.

فالتغيير مشروع مستقبل، بل هو عند الواعي هو عين المستقبل، فالمستقبل فضاء للتغيير، وهو عند الفاعل الدؤوب عين التغيير. إذ لا وجود له بدونه، ولا سبيل لانبثاقه وتجسيده إلا بحرية الإنجاز التي يحملها وفرص الفوز التي يسمح بها.

والتغيير وعي وعمل، وعي بالذي ولى وما فرَّط من العمل فيه، والذي يأتي وما يلزم من الإنجاز فيه. وعمل على استدراك ما ضيع أو لم يقدر عليه فيما مضى، ومضاعفة الجهد في الفوز بكل فرص ما بقي.

التغيير مستقبل، لكن يعبر عن مضمونه على بوابة الحاضر، يقابل ويوازي بين المدبر والمقبل، بين المدبر البارحة والمدبر اليوم، انطلاقا من الأثر الحكيم : «من تساوى يوماه فهو مغبون».

فالتغيير بحر تتلاطم أمواجه على جرف الحاضر تهزه هزا. ولو مثلناه سفينة تخترق بحر الزمن لقلنا أن المتغيرات أمواج تتلاطم على جوانب السفينة باستمرار، تختلف قواها بين الموجة الهادئة التي وكأنها تتلمس بنعومة ولطف أطراف السفينة، وبين موجات القعر التي تهز كيانها هزا، وتعرقل سيرها عرقلة قصوى.

● **أصناف التغيير :** والتغيير صنفان، تغيير نحو الأمام وتغيير إلى الخلف، أساس الأول الإبداع والابتكار والإقدام والمواصلة والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهو تغيير ذاتي لا يتأتى إلا بإيمان وجهد وعمل. والثاني تغيير تلقائي ينطلق فور ما ينعدم التواصي بالحق والصبر وتقف المواصلة على درب الإبداع والابتكار. وحين نقول الإبداع والابتكار فبمعنى مخالف للبدعة التي تعني التبديل والإضافة في الدين، ومناف للاختلاق في شرعه. فالاجتهاد إبداعاً وابتكاراً وفق السنن الإلهية في الكون والحياة هو أساس التغيير، وهو مولد التدافع المانع لفساد الأرض، فكل مادة حية فاقدة للحركة والتغيير هي معرضة للموت، وتلك سنة قارة يسري أثرها على الكون والحياة والخلائق.

● **التغيير عقبات وفرص عطاء :** والمتغيرات في جوهرها محن وعقبات، مطلوب تجاوزها واقتحامها من جهة، وفرص ومناسبات فرض على الواعي النشط استغلالها وتسخير عطاءاتها من جهة أخرى. فالهجرة من مكة إلى المدينة زمن النبي عليه الصلاة والسلام كانت متغيرا من المتغيرات العظمى التي دفعت بدين الإسلام إلى التبلور والانتشار فالانتصار. كما أن فتنة الصحابة بقتل سيدنا عثمان وقيام الحرب بين مؤيد لسيدنا علي كرم الله وجهه، ومناصر لمناوئيه ومخالفيه من المتغيرات القاتلة التي أصابت الأمة، وأحدثت في جسدها شروخا مازالت تعاني منها لليوم.

فالتغيير تغير حال عبر الزمن من شكل إلى شكل أو أشكال مخالفة. وهو إما إيجابي أو سلبي. إيجابي حين يكون الشكل أو الأشكال الجديدة أوفر عطاء وأحسن مردودية وأتقن صنعا وأحسن نفعا من الشكل الأول، وسلبي حين تكون تلك الأشكال أفظع وأنكى وأشد سوءا من الحالة المتغيرة.

● **التغيير تدافع حضاري :** ويشهد العالم الإسلامي المعاصر حجماً ضخماً وكثيفاً من التفاعلات

والتقلبات بعضها نابع من الذات، وبعضها صادر عن التأثير بالمحيط الجغرافي والتدافع الحضاري وسياسات الهيمنة الأجنبية، تتلاحم حينا وتتنافر حينا، مولدة مناخاً شديد التقلب، هش الاستقرار، دائم التغيير.

ولهذا التدافع الحضاري سمات وأشكال بزوغ أهمها :

أ – الشعور بتزايد سرعة الزمن وتداول الأيام، إذ وقع في السنوات الأخيرة من الأحداث الجسام ما يعادل أثراً ووقعاً وسجلا ما يعادل قروناً من الحوادث في تاريخ البشرية.

ولقد ساهم التقدم العلمي، والتطور التكنولوجي، وانتشار الخطاب المعرفي، والذكاء الاصطناعي، والنمو الديموغرافي، في دفع حركة السير إلى سرعة فائقة، لم تعد تسمح لغير المتأهبين بمتابعة الحدث والسبق في اتخاذ القرار في شأنه. وأضحى حجم المعارف والمعلومات يتضاعف في سنوات قليلة العدد، وأصبح العالم يشهد في ثوان قليلة منتوجا صناعيا جديداً، أو ابتكاراً علميا حديثاً، وألواناً من الصراع الثقافي والحضاري والعلمي، لاصقة ومتولدة عن الصراع السياسي والاقتصادي، والتنافس الصناعي والتكنولوجي، والانفجار المعرفي والعلمي.

ب – حدة التغيير الناجم عن حركة التاريخ السريعة، وتفاقم درجات التعقيد للقضايا والإشكاليات المتولدة عن ركام الأحداث التي لم يسمح ضيق الوقت لا بفهم مضمونها ولا بدراسة أسبابها وآثارها، خاصة في البلدان المتخلفة. يضاف إلى ذلك أن التطور المستمر في ميدان المواصلات والاتصالات قد ساهم في تقارب الأمكنة، وتقليص المسافات بشكل يوهم بتضايق وتقلص المكان، ودفع من جهة أخرى إلى تضخم برامج الأعمال ومصارعة الوقت بشكل يوحي بتضايق وتقلص الزمان.

ج – تضاؤل دور المادة أمام الذكاء الإنساني والآلي، وانتقال المجتمع الإنساني المعاصر من مجتمع إنتاج إلى مجتمع معرفة، للذكاء فيه الدور الأساسي في كل ابتكار، وأسبقية على المادة والرأسمال في كل إنتاج. بل نجد التسابق والتنافس على الابتكار في مجال الذكاء الصناعي السمة الأساسية للصراع التكنولوجي بين الدول الصناعية المتقدمة.

د – تعفن وتعقيد العديد من القضايا التي لم تعالج في حينها، أو أرجئ النظر فيها إلى حين توفر إمكانياتها، فتجاوز تطورها حجم ما خصص لها، مما جعل العالم الإسلامي يئن تحت ركام ضخم من المشاكل والقضايا غير المعالجة سياسيا واقتصاديا وتربويا واجتماعيا وفقهيا، مستنجدا بمؤسسات غربية ودولية لها من الشروط وطلب الضمانات ما يعجز عن الإيفاء به، ويزيد من تبعيته، وينال من سيادته، سواء على الصعيد العسكري أو المالي أو التكنولوجي.

هـ – تباين نسب النمو الديموغرافي بين الدول الفقيرة والغنية داخل المجتمع الإسلامي من جهة، وبين دول الشمال ودول الجنوب على الصعيد الدولي من جهة خرى، مع شباب سكان الجنوب وكهولة سكان الشمال. فخمسون بالمائة من سكان العالم الإسلامي يقل عمرهم عن 16 سنة، وأكثر من الثلثين يقل عمرهم عن 30 سنة. هذا إضافة إلى الهجرة القروية واكتظاظ المناطق الحضرية وضواحيها بالسكان، نتيجة لتفاقم تطور النمو الديموغرافي، وما يتولد عنه من عجز في تلبية الحاجيات الاجتماعية والتربوية والاقتصادية.

● **الثقافة أبرز عوامل التغيير** : ويرى خبراء المستقبلية أن الثقافة أضحت اليوم بفعل هذه التقلبات والتفاعلات أهم عامل في مجال العلاقات بين الدول. فقد يترتب عن الاتصال الثقافي وصراع الثقافات من القضايا في المستقبل ما قد يفوق عدداً وحجماً ما يترتب عن التبادل الاقتصادي والاجتماعي غير المتكافئ. وإذا لم يكن العالم على بصيرة من الناحية الثقافية، وصاحب استراتيجية ثقافية محكمة، تلاقفته أمواج القضايا المعقدة والمستعصية على الحل لتشل حركته، وتضاعف عجزه، وتزيد من تبعيته وحاجته لغيره.

فمن أهم العوامل الفاعلة والمغيرة على الساحة الثقافية اليوم ثلاث أدوات اتصال كبيرة، أولها **جهاز الإعلام**، بما يشتمل عليه من إذاعة وتلفزيون وصحافة، الثاني **جهاز التعليم** وخاصة منه مدارس الحضانة والتعليم الأساسي، الثالث **المؤسسات الشعبية للتربية والتثقيف**، ونقصد بها تلك التي تتصل بالشعب مباشرة وجها لوجه دون الحاجة إلى وسيط رسمي أو إشراف حكومي مثل المسجد، والنوادي، والمراكز، والمقاهي، وغيرها من أدوات الفعل المستقلة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالجهة الأولى لها اتصال بالجمهور متعدد الأوجه والمنابر، تتسع وظائفه وتقنياته حجما وتطورا يوما عن يوم، والثانية لها اتصال بالشرائح اليانعة والشابة عن طريق نظم معينة ومناهج محددة، وبرامج منتظمة، والثالثة اتصال مباشر له الأثر القوي في النفس والسلوك والفكر والمعرفة. لكل أداة مستويات مختلفة في التأثير، ودرجات مختلفة أيضا في إمكانية الاستغلال. وتبقى الأداة ذات الأهمية القصوى هي المسجد، وهو المجال الأوسع والأرحب والأكثر تأثيراً على المدى الشعبي، وإذا كان من الصعب على الأمور الفكرية أن تدخل إلى الناس عن طريق المسجد دون صقل وتمحيص للغث من السمين، فإن الدعوة الإسلامية ما تنفك موظفة للأمور الفكرية، ومشيعة للثقافة الإسلامية من خلال رسالة المسجد في بساطتها، وهذا هو حقيقة الدين الإسلامي، كونه يخاطب الناس ببساطة، فإذ به يخاطبهم بعمق لأنه يخاطبهم بهذه البساطة.

ويوازي هذه الأداة في الأهمية المدرسة ودور التعليم التي هي فرع من المسجد بمفهومه العام، فهي المجال الأوسع والأرحب والأكثر تأثيراً على المدى الطويل في الأجيال الصاعدة، وهي الضمان لاستمرار التواصل والتلاقح بين تلك الأجيال.

● **التغيير تنمية** : التنمية من نما ينمو أي كبر وأينع، والنمو يتجلى داخليا بتدافع مكونات الذات النامية، وخارجيا بتغيير شكلها وحجمها ومكوناتها. ونؤكد على التدافع والتغيير دون سواهما، لأن الإسلام منهج شامل متكامل متماسك، ينبه الإنسان إلى وجود جدلية دائمة بين الحق والباطل يكون فيها الباطل زهوقا بمجرد أن يقذف ويدمغ بالحق، ويشير إلى ديمومة تدافع الناس بعضهم ببعض، والتي هي قوام صلاح الحياة ودوامها على وجه الأرض، باسطا ما بين العالم الدنيوي الحاضر والعالم الأخروي المقبل من علاقة عضوية وسببية، أساسها التغيير وحوافزه، والسعي نحو الأفضل بين الحاضر الآني والمستقبل الآتي. وحسبنا للشهادة على ذلك قوله تعالى : ﴿**ولولا دفاع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾، وقوله سبحانه : ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾.

● **التفكير قبل التغيير** : ورد في مؤلف «الشرق الأوسط عام 2000» الذي أصدرته الرابطة الإسرائيلية للعمل من أجل السلام» في تل أبيب عام 1971 – وهي مؤسسة مرتبطة تمويلاً بوزارة الإعلام الإسرائيلية – أن من المشروعات المتوقع ظهورها في بداية القرن الحادي والعشرين «سوق البحر المتوسط المشتركة» التي تحوز فيها إسرائيل نصيب الأسد من تجارة وتصنيع الحمضيات والبيتروكيماويات، ومراكز الطب المتقدمة، ومعظم المعامل النووية المركزية، وأكثر الجامعات والمعاهد العلمية، وموانئ الطيران والشحن، ومناطق تجارة الترانزيت، ومواقع السياحة الدولية.

وهي دراسة تبشر بهيمنة إسرائيلية صهيونية على المنطقة بحيث تصبح إسرائيل القطب المهيمن سواء في العلم أو الجامعات، أو السياحة الدولية، أو من حيث كونها محطة الطيران المركزية، ومحطة الشحن المركزية، ومحطة توليد البيتروكيماويات، ومحطة تصنيع الحمضيات، بحيث تكون معظم البضاعة العربية الموجودة في شتى المناطق تشحن ويتخذ القرار في شأنها وفي تصنيعها وفي تعليبها وفي تسويقها من المركز لهذه السوق التي هي إسرائيل.

ونحن نرى اليوم هذه السوق الشرق الأوسطية تفرض نفسها وبإلحاح، وبدعم كبير من الولايات المتحدة، حتى أضحت المساعدات المالية من المؤسسات الدولية أو القروض من البنوك العالمية مقرونة بقبول هذه البرامج الاقتصادية التي أعدت من خلال دراسات قامت بها هيئات نعتبرها في بحث نعده للنشر من صنف ما دعوناه بمقاولات تسويق الأفكار وصناعة القرار.

وتجدنا لا نهتم بهذه الدراسات، ولا نطلع عليها، ولا ندرسها، وهي تستشرف المستقبل وتضع الخطوط العريضة للعمل الذي ينبغي أن تقوم به المؤسسات العالمية، ورجال القرار الدوليون في مختلف المجالات، ولهذا ليس من الغريب أن نجد بعضنا يفاجأ بمنظومة الشرق الأوسطية، وقد تجده غدا من المندهشين لما استحوذت عليه إسرائيل من مركزية القرار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في منطقة كانت تدعى بالعالم العربي، كانت إلى حدود الأمس القريب تدين بدين الإسلام، فإذا بها تئن تحت وطأة الضغوط الاقتصادية والفقر، والمشاكل المفتعلة، والحروب المستحدثة، والصراعات الداخلية بين مختلف فصائلها. فهذا أمر يعد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

له الآن، وقد صنع جزء كبير منه اليوم، لأن المستقبل إما أن تصنعه أو يصنع لك، وما دمنا غافلين عن صناعته وغير مراقبين لما يصنع منه في هيئات ومختبرات ومؤسسات أخرى، فحظنا منه غدا المفاجأة.

ولقد شارك بعض الخبراء العرب - سامحهم الله - تحت الضغوط الاقتصادية، وتحت جاذبية القرارات الدولية، وخشية من المصادمة، وتحت التخويف من مستقبل رهيب في هذه الدراسات والبحوث، ورأوا على أن حضورهم ضروري، وهو أولى من غيابهم وعدم مشاركتهم ومراقبتهم، فهو يمكنهم على الأقل من الاطلاع، لكن نجد كذلك آخرين انساقوا وراء أناشيد السلام والأمن الذي سيعم المنطقة، والذي لن يعم إلا الجزء المسمى إسرائيل، مثلما كانت الحرب الباردة بالنسبة للدول العظمى، حيث كانت الحرب باردة بالنسبة لهم وساخنة في أقطار أخرى إلى درجة الاحتراق.

فذلك مثال سقناه للإشارة إلى تفكير جندت له كفاءات، وتغيير سخرت له مؤسسات، يتم على حساب اقتصاد دول أخرى وشعوب أخرى، لن تجد من مجال أمامها غدا بعد الغفلة عن صناعة الغد إلا أن تقوم بعمليات السخرة والخدمة لصالح الدولة المركزية، والدولة صاحبة القرار النافذ : إسرائيل.

● **حاجتنا إلى مزيد فهم للتغيير :** راجعت عديدا من الأدبيات والكتابات الإسلامية حول مفهوم التغيير وحول المتغيرات، فوجدت العديد منهم ينطلق من الآية : ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ ثم لما تمعنت وبحثت عن الدراسات المعمقة في هذا المجال، وجدت الإنتاج فيها ضعيفا، وقد انحصر البحث عندي حين أمعنت فيه النظر بين طرف يقول بأن هذه الآية التي يعتمد عليها المسلمون لتقديم فلسفة إسلامية للتغيير هي آية يراد بها تغيير سلبي، تغيير تزال به النعمة، ويمثل هذا التيار الدكتور جعفر شيخ إدريس فيما كتبه في بحث بالإنجليزية نشره اتحاد الطلاب المسلمين بأمريكا سنة 1977، وترجم في مجلة المسلم المعاصر تحت عنوان «منهج التحول إلى الإسلام»، ثم عاد فأشار إلى نفس الأفكار في ندوة «التغيير» المنعقدة بدولة الكويت مع مشاركة وتنظيم «المعهد العالمي للفكر الإسلامي»، ثم حضرت له كذلك في رمضان 1414 محاضرة بالمعهد الإسلامي التابع لجامعة الإمام بن سعود بواشنطن انطلق فيها من هذه الآية، وشرح المراد منها وهو أن التغيير المراد من الآية تغيير سلبي.

وللأستاذ جودت سعيد بحث هام حول التغيير يحتاج إلى وقفات في غير هذا المقال، إلا أن أجود ما قرأت في الموضوع هو بحث للدكتور طه جابر العلواني بعنوان «الأزمة الفكرية ومناهج التغيير» سنعمل على نشره في عدد قادم بهذه المجلة بإذن الله.

وأكيد أن التغيير من عوامله الفاعلة زوال نعم وحلول نقم وحصول طمع لدى الفئات البشرية، وتنازع وقتال وحروب، هذه عوامل تفجر المتغيرات، لكنها عوامل تخضع لسنن إلهية قارة إلا ما كان منها مفاجئا مثل الكوارث الطبيعية وغيره، فتلك امتحانات ربانية وانتقامات إلهية يريد الله سبحانه وتعالى بها أن يبلو البشرية «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» فهذه العوامل الفاعلة هي مما لا شك فيه من روافد المتغيرات، وطاقات لانفجار تلك المتغيرات.

لكن الآية حين تشير إلى التغيير السلبي، الموجب لزوال النعمة، فهي ضمنيا تدعو لتغيير إيجابي من خلال المراجعة والإسراع بالتوبة والتمسك بحبل الله المتين عبر الدعاء الخالص والعمل الصالح.

والمنخرط في التغيير اليومي بوعي وإيمان هو المدرك لمفاهيم ومعاني فاتحة الكتاب المبين، ففي السبع المثاني وأم القرآن العظيم للمنهمك في التغيير الدرس البليغ والنهج الحكيم.

الرباط - محمد بريش

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

توطيدُ الأسلمة
في أوساطٍ مُعلَمَنة

الفصل الرابع

في مناهج
معالجة واقع الفعل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

توطيد الأسلمة في أوساط معلمنة:

في مناهج معالجة الواقع

للأستاذ محمد بريش
مهندس خبير في الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية
مدير مجلة دعوة الحق
الرباط

ظلت دراسة الواقع دوما تحتل الجزء الأكبر من تحليلات خبراء المستقبلية على ساحة أوضاع قوية الزلزال، شديدة التغيير. وحين نقول «الواقع» نعني به «الحاضر» ضاما إليه جنبيه اللصيقين به: «الماضي القريب» الذي لا سبيل لفهم الواقع بدونه، و«المستقبل القريب» الذي هو جزء من ذلك الواقع الحاضر.

بل كثيرا ما رددنا في دراستنا الاستشرافية التي أنجزناها لبعض القطاعات الحكومية أو المؤسسات الدولية أو المراكز العلمية تسمية هذا الواقع بمصطلح خاص به سميناه «المستقبل المشهود»، حتى يبقى المستقبل حاضراً في أذهاننا بكل خطوراته وحركيته وتنقلاته، ماثلاً بين أعيننا منذ بدايات انبثاقه من آفاق المقبل من الأيام، إلى آخر لحظات ولوجه بوابة غابر الأزمان، شريطة أن يكون له نوع من الفعل مقبلا أو مدبرا في ساحة الواقع المشهود.

وحين نقدم على دراستنا للواقع، وفي أوساط جالياتنا الإسلامية خاصة ونبادر إلى جمع عناصر تركيب استشرافنا للمستقبل القريب، نكون قد دخلنا صلب موضوع دراستنا حول تجديد الذات والوعي بالمحيط، أو توطيد الأسلمة في أوساط معلمنة، وكنا حددنا منهج المعالجة التنظيرية والعملية في كون المستقبل مجال الفعل، والثقافة أداة الفعل، والتغيير مسار الفعل. ومهدنا لذلك بضبط للمصطلحات وبيان للمفاهيم. والبدء في كل ذلك يكون من معالجة الواقع. والواقع لا يرتفع كما يقول الفقهاء، ولكنه يدرس ويشخص، ويحسن بنا أن نبعد حين استقرائنا للواقع بكلا طرفيه اللصيقين به السابق منهما واللاحق، عدم الخوض في متاهات «شخصنة» الأحداث بحصر أسباب انبثاقها في وجود أشخاص مع إقصاء متعمد للظواهر والتيارات، وأن نلتزم منهج إمعان النظر في جميع العناصر الفاعلة، سلبية كانت أم إيجابية.

ولكم عانينا في هذا الجانب من عدم توفر المعلومات الصحيحة والدقيقة عن الأحداث المزلزلة، وتزييف أو تهميش الإعلام الذاتي، إلى جنب تضخيم وتلفيق مشوه لها من طرف الإعلام الخارجي، مما دفعنا إلى الحيطة والحذر من القبول بصحة الأفكار السائدة في مجتمعاتنا لمجرد شعبيتها وتداولها بين الناس، خاصة منها تلك التي يكون مصدرها الإعلام بشتى أبواقه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويحتاج كل دارس ومشخص للواقع إلى إخضاع كل معلومة متوفرة لديه مما يروج من الأفكار والمقولات للتمحيص تجنباً وحماية من العديد من الأمراض المنهجية والفكرية التي تحملها بعض الدراسات المرتجلة، أو التقارير الصحفية المستعجلة، مثل التبني الظرفي لأفكار الماسكين بزمام القرار، أو الاقتناع بصواب رأي أو سلامة فكر بمجرد ترديده على ألسنة العامة. ذلك أن مهمة الدارس لا يمكن أن تنحصر في مرجعيتها استطلاع للرأي - والذي يصوغه الإعلام بشكل كبير - ولكن ما ينبغي أن يعتمد عليه أساسا ويقصد إليه هو معرفة التيارات الغالبة التي بحركيتها وفاعليتها في أذهان الناس، وانعكاسها على أفعالهم، قد تنبئ بمستقبلات تسوء أو تحسن حسب سلامة المعتقد، وصلابة الثقافة، واللتان صيغت على قوامهما الأفكار والآراء المولدة لتلك التيارات.

فلقد عجت ساحاتنا الفكرية والثقافية بسيل من الأبحاث والدراسات المرتجلة حول تاريخ ومستقبل كارثة الخليج الأخيرة مثلا، وهي من الأحداث المزلزلة التي عرفها عالمنا الإسلامي، ومايزال يكتوي بنارها، إن لم تكن أشدها دويا ودمارا بعد حادث اغتصاب فلسطين في تاريخنا المعاصر. فكثير منها رغم ما تميز به من تفصيل في المعلومات، حجر واسعا حين رمى بكل أسهمه لتبرير انفجار الكارثة صوب شخص أو أشخاص محددين. فـ بذلك عن قصد أو غير قصد لترويج أفكار ومقولات تلهب نعرات الجاهلية المقيتة، وسد الباب في وجهه ووجه المقتنعين بأفكاره لكل تحليل علمي وبحث موضوعي. فتحليل من هذا النوع الأخير جدير باعتماد العلم والموضوعية في مضامينه، ولا يمكنه بحال - حرصا على عدم الخيانة لمبادئه - أن يبرئ ساحة أي عنصر فاعل في إضرام النار بالخليج، سواء بزغ على الساحة أم ظل كاتم النفس.

ويزيد من عنت الباحث والدارس للواقع تواصل تضخم أمرين خطيرين، ماحقين لكل تفكير ومفسدين لكل تحليل إذا لم يحكم التمعن في الحوادث وأسبابها، ويحسن اختيار المراجع مع الوعي بثقافة محيطها، ويحتاط من سماع قنوات الإعلام قبل تمييز غثها من سمينها :

الأول : تدفق دراسات مطنبة في تبرير قرارات القادة من هذا الطرف أو ذاك المشارك في صنع أو مشاهدة الحدث المدوي سياسيا كان أم عسكريا أم فكريا أم ثقافيا، قل أن يجد فيها المؤرخ أو الباحث تحليلاً علميا للمواقف والأحداث في إطارها الاستراتيجي، أو يلمس في موضوعاتها وشكل أسلوبها أثراً لعوامل فاعلة غيبت، وإشارة لتيارات غالبة أبعدت، تفسح الطريق - بفعل مخططات وإعدادات من يرضيهم تأزم عالمنا البئيس، ويسعدهم زوال شوكته - لانبثاق هيمنة على المنطقة، وتسليط بعضها على البعض، ضمن ما دعي بالنظام الدولي الجديد. فرغم توفر ركام ضخم من مثل هذه الدراسات، يحسن بالباحث وهو يدرس واقعاً بعينه محدداً بمحيطه ولصيقاً بأوضاع أهله ومستوياتهم الإيمانية والعلمية ومقدراتهم الاقتصادية وبنيتهم الاجتماعية عدم الالتفات إليها لغياب النفع منها بخصوص ما هو بصدد البحث فيه.

الثاني : تهاطل معلومات، الله أعلم بصحتها، من مذكرات تنشر واحدة تلو الأخرى لمؤسسات رجال القرار بالغرب، مع الصمت المخيف من جهة المالكين بالزمام ومساعديهم بعالمنا الإسلامي، خاصة حين يتعلق الأمر بمستقبل جالية مسلمة محلية يحتاج مشورة جماعية وصياغة محلية. فلكم يصدم الباحث في مجال المستقبلية، مثل غيره من رجال البحث الاجتماعي والسياسي، حين يسعى لمعرفة رأي هذا الصنف الأخير من رجال القرار، فيحال على خطب ومقالات صحفية تعلل عدم القدرة على المواجهة بحجة ضرورة التريث وانتظار استكمال العدة، تقلب الهزيمة نصرا، وتجعل الخسارة ظفرا، معللة مواقفها وعجزها بأن لولا ما بذلت وتجشمت، لكانت المصيبة أعظم، والوقع أشد.

وننعتهما بالخطيرين لأن أمة تجلس جلسة المتربص المنتظر، لا يمكنها إطلاقا أن تقوم بأي تغيير يذكر. فهي إذا

إهداء من شبكة الألوكة

ما تحركت اجتهدت لتبرر وضعاً قائماً باستحالة رده أو تغييره، وأن ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأن القدر المحتوم سبقها فأحبط ما كانت تنوي القيام به، وأن الوضع اليوم أخير مما قد يؤول إليه غدا، وهلم جرا من التعابير المانعة من الاستقراء الشامل، والحائلة دون مواصلة الجمع للمعلومات والتحليل، والقاتلة في المهد لكل مشروع مستقبلي بديل.

ويحتاج الدارس المشخص والمنقب والمسائل لأحداث الواقع للتغلب على مثل العقبات المشار إليها إلى منهجية ذات ثلاث ركائز نعرضها بإيجاز فيما يلي :

أ - الاستيعاب الواعي للماضي :

فاستيعاب الماضي ووعي حركته التاريخية ضروري لفهم الواقع الحاضر. لأننا من خلال فهم آليات ومحركات الواقع الراحل، والمتابعة الدقيقة لمسارها التاريخي، سنتمكن من إدراك جزء كبير من شكل وصور مختلف التطورات التي خضعت لها الأمة، وخاصة منها تلك الجاليات المعنية بتفعيل الأسلمة في وجه برامج العلمنة، سواء على الصعيد السياسي، أو العسكري، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو الفكري، أو الثقافي، أو التربوي. كما ستسمح لنا متابعتنا المتبصرة لتطورات الماضي القريب اللصيق بالحاضر بكشف الجينات التي ساهمت بشكل أساسي في انبثاق الواقع الحالي للأمة. ودقة المتابعة تحتاج إلى إعمال الوعي في فهم وقائع التاريخ، علماً بأن الماضي لا يمكن الولوج إلى أغلبه إلا من خلال النص المدون، والخاضع لتحاليل الدراسات النقدية والتاريخية المختلفة في شتى ميادين العلوم الاجتماعية والسلوكية، وهو ما لا مناص من توفيره وتحقيقه، وتدقيق صحة أحداثه. والمتوفر المحقق قليل، تدل ضآلة حجمه على ضعفنا العلمي وتأخرنا الثقافي، وخاصة في الجهات التي لم يكتمل بها بشكل لارجعي توطين الإسلام.

ب - الاستقراء الشامل للواقع المشهود:

إن إصلاح الواقع يمر حتما عبر فهم شكله ومضمونه، وثابته ومتحركه، وحديثه وقديمه، وقويه وضعيفه، والظرفي منه والمتواصل. والعلة في استقراء وقائعه، وتبين تضاريس مختلف خرائطه فكراً وثقافة ومنهجاً، عطاء وأخذاً، تمليها عند دارس المستقبل الرغبة في إعمال التغيير فيه، لينتقل به إلى وضع أحسن وأمثل. وهو أمر يحتاج إلى أدوات جمع للمعلومات ضخمة، وأدوات تحليل ونقد قوية ودقيقة، وأصناف من المعطيات والكشوفات والتشجيع على دروب شتى من التخصصات، نذكر منها مثلا :

* دراسة التيارات الفكرية والمذهبية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية السائدة.
* الاطلاع على الدراسات الميدانية المختلفة في ميادين العلوم الاجتماعية والسلوكية.
* الخوض في تحاليل المعلومات عن الواقع القطري والقاري والدولي، وخاصة في المحيط الجغرافي.
* الإقدام على المقارنة مع تجارب الدول الحديثة التي واجهت اقتحام ثقافة الغرب لمواقع حساسة في النسيج الفكري والثقافي للمجتمع مثل الصين وكوريا واليابان وغيرهم، ومعرفة عوامل الضعف والقوة لديهم.
* دراسة وتتبع نشاط المنظمات القطرية أو القارية أو الدولية.

والقيام باستقراء الواقع على أكمل وجه، يتطلب توفر ركام ضخم من المعلومات، وعدد هام من الدراسات والأبحاث، تهم كل قطاع حيوي للمجتمعات الإسلامية والدولية على جميع الأصعدة. لكن عوائق شتى قد تحول دون ذلك على الوجهة المثلى، لكن يواجه الخصاص فيها بإجراء الحوارات واستقراء كبريات المراصد سعيا لسد الثغرات المنهجية الناتجة عن النقص في المعلومات، وكبحا لكل ارتجالية أو تلفيق بحجة الحاجة الماسة للمزيد من المعطيات، أو استحالة الوصول للمفصل والغني من الدراسات القطاعية والميدانية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ج - الاستشراف المحكم للمستقبل :

ويبقى ما يسعى أساساً ليخلص إليه من العنصرين السابقين هو إجلاء أوجه الشبه بين الماضي والحاضر، وربط مسار تطور الأول بالآخر، حتى يكون الدارس على وعي بالجينات، وإدراك لمختلف التيارات والتوجهات، والتمكن على بصيرة من تكهن صور محتملة الشهود للمستقبل، لا يقصد من ورائها ادعاء علم بالغيب، ولكن يصبو من خلال تفصيل مشاهدها إلى شحن الحوافز، واستكمال العدة، وإيقاظ الهمم، واستنفار جميع الطاقات المستجمعة.

وحتى يستطيع الخبير الدارس تحقيق هذه المنهجية بركائزها الثلاث على الوجه الأكمل، كان لابد من استيفاء شروط ثلاثة :

1 - توفر ركام كاف من المعلومات :

فوجود الإعلام بأشكاله المتعددة، والأطالس بطبعاتها المتنوعة، وتوفر المعلومات بقراءات مختلفة وإن موجهة ومطعمة، جعل الكفة في جميع الميادين لصالح الغرب ومؤسساته. ويكفي للدلالة على ذلك كون الباحث في عالمنا الإسلامي حول وضع من أوضاع وطنه وأماكن تواجد جالياته المهاجرة، لابد وأن يلجأ للإحاطة بالمعلومات التي يرجوها وينوي اعتمادها - بعد جهد تقصي وضنك المتابعة - إلى اقتباسها ونقلها من المراجع والحوليات والدوريات والدراسات ومراكز المعلومات الغربية.

فالمعلومات عن الشعوب والحضارات وعاداتها وتقاليدها، وتاريخها وتراثها، أصبحت كلها في متناول الرجل الغربي، وكذا المتمكن من لغته، بتكلفة أقل بكثير مما كانت تكلف سابقا، طبعا بقراءاتها وتحليلاتها الخاصة، لكن بزادها الضخم بالمعلومات والمعطيات التي تعجز عن الزخم بها نفس الحضارات والشعوب الأخرى التي لا تتردد في اللجوء إلى مراجع هذه المعلومات حين الحاجة، بل قد يلمس لديها افتخارها بها، وإن لم تشارك بشيء في إعدادها وإنجازها، دون أن يحفزها ذلك الافتخار إلى إصدار مراجع بديلة ومنافسة في المصداقية والتوثيق والتحقيق.

ولقد أضحى اليوم اقتناء مكتبة كاملة حول تاريخ الشعوب والأمم والحضارات، وما ابتكروه من تقنيات، وما صاغوه من أفكار، وما أبدعوه من معارف، هو من حيث التكلفة دون اقتناء غذاء يوم واحد. والغاية القصوى من توفير ذلك بديار الغرب تمكين المواطن الغربي خاصة من معلومات ومعارف حول كيفية تفكير الآخر وتنظيمه وإقدامه، وما هي قيمه وأحلامه وآماله.

فتلك المعلومات رغم دقتها وتنوعها وتفاصيلها لم تصغ ليستفيد منها رجل القرار السياسي أو الخبير المستقبلي أو الباحث الاستراتيجي وحده، وإنما صيغت ليحدث لدى الأمة ذلك الوعي الجماعي المولد لنسيج الحماس والإقدام عند كل فرد من أفراد مجتمعاتها. ولطالما اعتبرنا في بلداننا العربية المعلومة موقوفة على الخبير، وصاحب القرار، وحجرنا واسعا في عدم السماح بتداولها حتى في أوساط النخب المثقفة، بيد أننا نجد التقارير التي تنجزها المؤسسات في مجال الدراسات الميدانية، أو التي يقوم بإعدادها خبراء كل فن من الفنون الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية بالغرب، سواء لصالح وزارة أو هيأة حكومية، أو مؤسسة رسمية أو غير رسمية، تنشر في معظمها ليستفيد منها جمهور واسع من المهتمين والمتتبعين.

فنادراً ما تجد عندنا ذلك الحس في توسيع دائرة المعرفة، ليس خشية أن يطلع عليها الآخر، وإن فسر الأمر بذلك أحيانا كذريعة، ولكن لأن عدداً من أصحاب القرار أصلحهم الله ألفوا الأحادية في اتخاذه، فظل استغرابهم متواصلا من أصوات ترفع بين الفينة والأخرى مطالبة بإلزامية المشورة، وضرورة إطلاع أفراد المجتمع على ما يصاغ لهم في دهاليز القرار من مستقبل، وما يعالج لهم من مشاكل. فقيام أصحاب القرار هؤلاء بذلك، مازال ينطبع عند الكثير منهم اليوم بالدلالة في رأيهم على عدم كفاءتهم في الكلام باسم الأمة، ويعتبر حطا من قدرهم

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقدرتهم في النيابة عنها لتدبير قضاياها وأمور دينها ودنياها.

لكن دخول مجالات المعلوماتية والأنترنيت، حبا في مسايرة ركب الحضارة والمنافسة، قد فتح أبواباً من المعرفة والمعلومات كان من المستحيل الحصول عليها من قبل بزوغ آثار هذه الثورة المعرفية.

2 – تناسق منظومة الأفكار :

إن تناسق منظومة الأفكار يمليه الجانب الاستراتيجي في كل دراسة استشرافية علمية أكثر من غيره. ذلك أن مشاهد المستقبلات الممكنة هي غالبا من النوع المشروط. والإيفاء بالشروط فعل يلزمنا الإقدام، وعمل يفرض علينا الاقتحام، ومن تم كان الفكر المستقبلي لصيقاً بالعمل الاستراتيجي. وكل من الفكر والعمل ينهل من منظومة أفكار متناسقة قصد تحقيق هدفين منهجيين :

– الأول : منع الفكر من الغرق في متاهات الخيال، وحماية العمل من انزلاقات الارتجال.

– الثاني : ضمان سلامة سير العمل على خطى ما ترسمه من معالم خصائص الثقافة، ودفع الفكر إلى مزيد من الإحاطة بأشكال المآل.

وطبيعي أن تشكل السياسة الاستراتيجية لكل مجتمع أو مؤسسة في جميع الميادين حسب منظومة القيم ونظم الأفكار التي تسود عند مالكي زمام الأمور بها، أي انطلاقا مما هو منغرس من الثقافة والفكر في نسيجها الاجتماعي وتركيبتها السياسية والقومية، والمنبثقة منهما منظومتها الفكرية المرجعية. وتبقى صلابة تلك المرجعية وخضوع الأفراد لسلطانها مرهونا بما يسود في المجتمع أو المؤسسة من قيم، وما يؤمن به أولئك الأفراد من معتقدات، وما يفرزه النسيج الاجتماعي من ثقافات. وتناسق أفكارها جنب تماسك عناصرها أمر بالغ الأهمية، إذ بدونه لا سبيل لمعرفة الاتجاهات الضخمة الممكنة من فهم واستيعاب مستقبل التصرفات الجماعية للمجموعات البشرية.

يقول «مالك بن بني» رحمه الله في مقدمته الأولى لكتابه : «مشكلة الثقافة» :

«إن تنظيم المجتمع وحياته وحركته، بل فوضاه وخموده وركوده، كل هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع؛ فإذا ما تغير هذا النظام بطريقة أو بأخرى، فإن جميع الخصائص الاجتماعية الأخرى تتعدل في الاتجاه نفسه. إن الأفكار تكون في مجموعها جزءا هاما من أدوات التطور في مجتمع معين، كما أن مختلف مراحل تطوره هي في الحقيقة أشكال متنوعة لحركة تطوره الفكري؛ فإذا ما كانت إحدى هذه المراحل تنطبق على ما يسمى بالنهضة، فإن معنى هذا أن المجتمع في هذه المرحلة يتمتع بنظام رائع من الأفكار، وأن هذا النظام يتيح لكل مشكلة من مشالكه الحيوية حلا مناسبا».

والخطر يكمن كذلك في الزخم المتزايد من المعلومات المولد لمزيد من التحليلات والاستنتاجات، والمكبل أحيانا للفعل حين العجز عن ترجيح الاحتمالات، أو المانع حين الضعف من اتباع التكهن المرجح بأنجع القرارات، والناتج أساسا من غياب تناسق الأفكار الذي جعل الأجهزة تنصرف جهة العامل الكمي دون القدرة على صرف النظر واقتصاد الطاقات عن ما ليس بالضروري.

فمحتوم على دارسي المستقبل ورجال الاستراتيجية البعد عن التدبدب في معالجة القضايا، وواجب في حقهم تثبيت الخطى والسير على نهج سليم، مع وعي كامل بالمخاطر والهزات، ونظر حديد في ساحة المستجد من الأمور والمحدثات. فالتوقف قاتل، والإقدام بناء على توهم تعوزه الأدلة انتحار، والخطى الثابتة تستدعي التأني في حركة الذات، مع السرعة في اختراق نور بصرها لظلمات القادم من الطريق.

ولعل هذا ما يفسر صعود الأمم وانهيارها، فهي تتألق حين تتماشى معلوماتها ومعارفها مع آليات هضمها الذاتي، وتنهار حين تعجز عن مواصلة الهضم، متوهمة استمرار قدرتها على المواكبة والتحليل لمستجدات الأمور، وحركات الخصوم. لأن المرض القاتل للأمم يكمن في صعوبة إدراكها لتوقف الروح الاستراتيجية بها، ويبدأ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التوقف حين العجز عن استجماع المعلومات الضرورية حول الأنا والآخر بمختلف أنواعها، أو تراكمها دون تحليل لعطب في آليات التحليل والاستنباط، أي بتسرب الخلل لمنظومة الأفكار.

3 – إتقان التحليل الديناميكي للأحداث :

أي نظر مستقبلي للواقع لا يمكنه أن يغوص أعماق ذلك الواقع المتقلب بشكل فعلي إلا إذا انطلق من دراسة ما يموج من الأفكار والآراء في الساحة الثقافية، وتبين ما منها سائد وأسباب سيادته، وما هو منها بائد وأسباب إبادته، وما هو منها كامن يترقب حظوظ انبثاقه أو سطوه، آخذاً بعين الاعتبار تفاعلاتها الديناميكية وتقلباتها الزلزالية، خاصة حين يصبح تسارع الأحداث والهزات ظاهرة تطبع حركة التاريخ المعاصر، ويصبح التحليل الذي أنجز البارحة غير صالح اليوم لبعده عن لواقع الذي تطور فجاءة بين البارحة واليوم.

ولمزيد من التوضيح، سنعمد لضرب المثل : هب أن باحثا انكب منذ سنوات على إعداد بحث حول اقتصاد ما كان يسمى بالاتحاد السوفياتي وتقديم الحلول التي يراها ناجعة له. فما نخاله إلا في تقص للمعلومات مستمر، إذ بين دراسته للوضع، وتقديمه للحل، سيكون الوضع قد تطور تطوراً مذهلاً جعل حله نوعا من العبث والجهل بالواقع. ولقد أشرنا في دراسات سابقة أن الثقافة كأداة فعل تجسيد للمكتسب من الصراع بين حق وباطل، ومرهونة الواقع والغد بمصير تشابك أيدي راغبة في الإصلاح، وأيادي نثنة تسعى لنشر الفساد، مع العلم أن الجو يعكره ويزكمه وجود أجساد عفنة تساعد على الإفساد. ومادام الأمر حربا وصراعاً فينبغي النظر إليه انطلاقاً من الوجهة الاستراتيجية التي تقدر حجم وعتاد الخصم، وتتزود لكسب المواجهة بالإعداد لتحقيق الحسم. والوصول إلى ذلك يمر عبر مراحل وعي ثلاث :

1 – الإدراك لنوع وحدة ودوافع التقلبات والتفاعلات.

2 – التبصر بتطورها وانعكاساتها على المستقبل الآني والبعيد.

3 – الإعداد المحكم لمواجهتها بالمستطاع الآن والمستطاع غدا.

ولا نظن يخفى على اللبيب أن تناول مختلف عوامل الحركة الاجتماعية والسياسية والفكرية والثقافية في عالمنا المنهك القوى – وخاصة في أوساط جاليات تفتقر إلى السراة الواعية، والمرجعية العلمية الراسخة والمجددة – قد أفسده خوض جمهور عريض من غير المتخصصين، وفضول جمهور غير قليل من المنتفعين ومرتزقة الفكر ومقاولي الثقافة في قضاياه التاريخية والمعاصرة، وعمدهم لتحليل أسبابها ودوافعها بشكل جعل الأمر ينتقل من إشكال إلى تعقيد، ومن غموض إلى مزيد.

ولكن الاهتداء بما بيناه من نقط، وبسطناه من قواعد، كفيل بحشد الهمم لصياغة منهجية تعالج الواقع وتشخص تضاريسه، لا سبيل للقيام بها إلا بتفحص العوامل الفاعلة في الواقع المعنى بعينه، ولا سبيل إلى الانتفاع بها بإسقاطها على واقع مخالف في الطبيعة، ومغاير في العوامل.

الرباط – محمد بريش